

اقرأ

أحمد السنناري

فنون السحر

دار المعارف بمصر

فنون السحر

أحمد السنناری

فنون السحر

اقرا ۱۷۴

دار الفارف بمصر

اقراء ١٧٤ - يونية سنة ١٩٥٧

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

الفصل الأول السحر في الأمم القديمة

السحر قديم غاية القدم ولا يمكن أن يصل الباحث إلى أصوله وبداياته لأنها أقدم من كل أثر خلفه الإنسان . ولقد كان السحر موجوداً في كل زمان وفي كل مكان ولا يزال له إلى اليوم أشياع وأنصار منتشرون في كل بقاع العالم على الرغم من غلبة العلوم المادية على كل ما هو روحاني ، بحيث أصبح الإنسان لا يؤمن إلا بكل ما هو محسوس ملموس .

على أن السحر قد اختلط منذ أقدم العصور بأعمال الشعوذة وحيل المشعوذين وتخييلات أصحاب العقول السقيمة وجرائم الأفاكين والمحتالين ، ودخل إلى ميدان هذا العلم أو الفن إذا أردت الدقة أناس بعيدون كل البعد عن هذا الفن واستغلوا مبادئه وظواهره لتحقيق أغراض مادية لهم ومن ثم بدأ الشك يتسرب إلى عقول الناس في حقيقة هذا الفن فوصفه البعض بأنه فن إحداث معلولات دون أن تكون لها علل ظاهرة ، وذهب آخرون إلى أن السحر مجرد باطل من الأباطيل .

على أنه لا مريه في وجود السحر فقد ورد ذكره في التوراة والإنجيل والقرآن وجاء على ألسنة الرسل والأنبياء بل وُصف بعض الأنبياء بأنهم كانوا من أهل هذا الفن ومن المبرزين فيه كموسى ، وسليمان ، بل إن اليهود قد وصفوا عيسى نفسه بأنه كان ساحراً وأنه درس هذا الفن في مصر .

ولا تخلو أمة من وجود السحر والسحرة بها مهما اختلف حظها من الحضارة والتدين ، كما أن السحرة موجودون في كل القبائل الهمجية المنتشرة في بقاع عدة من آسية وإفريقية وأمريكا ، وهم في هذه القبائل والجماعات البدائية الطبقة الوحيدة التي تشتغل بالحرف والصناعات .

ويذهب بعض علماء الاجتماع إلى أن جميع فنون السحر تقوم على أساس من المعتقدات الدينية ، على أن البعض الآخر يميل إلى القول بأن السحر أقدم من كل المعتقدات في الآلهة والأرباب ، بل يذهبون إلى أكثر من ذلك فيقولون إن بعض الظواهر الدينية البدائية تفصح عن أنها قد نشأت عن السحر . وليست الطقوس والشعائر الدينية ونظام الكهنوت هي الظواهر الاجتماعية الوحيدة التي يدل البحث على أنها أحدث عهداً من السحر وأنها ترجع في أصولها إلى السحر ، بل هناك كثير من مظاهر الحياة اليومية الأخرى عند الشعوب البدائية تتصل

اتصالاً وثيقاً بالسحر ولا يصح القيام بها إلا بمصاحبة بعض الشعائر السحرية من رقى وتعازيم. الأمر الذي دعا البعض إلى القول بأن الرقى السحرية هي أقدم حقيقة في تاريخ الحضارة الإنسانية .

ومن فريد ما يروى في هذا الباب أن الرقى والتعازيم التي يتاوها الساحر بصوته ذي الجرس الذي يجمع بين الرهبة والابتهاال كانت الأصل الذي نشأ عنه فيما بعد فن الموسيقى .
وليس من شك أيضاً أن الشعر والفنون التشكيلية كالنحت والتصوير وكذلك الطب والرياضيات والفلك والكيمياء كلها من العلوم التي لها أصول في فن السحر .

السحر في الصين :

إن أمة الصين من أقدم الأمم ذات الحضارات العريقة وقد نما فيها السحر وترعرع منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . ويرى البعض أن كتاب الحكيم الصيني الشهير كونفشيوس المعروف باسم « كتاب التغيرات » وهو من أقدم المؤلفات الصينية إن لم يكن أقدمها هو في صيغته الأولية عبارة عن أسلوب من الكهانة وعلم الغيب . ومن الحقائق المعروفة أن كثيراً من الأعمال والتجارب السحرية التي كانت تزخر

بها كتب السحر الأسود في أوروبا إبان العصور الوسطى قد نقلت عن كتب السحر الصينية أو أنها كانت على الأقل وثيقة الشبه بالأعمال والأعاجيب السحرية التي كانت تمارس في بلاد الصين القديمة .

وقد اشتهرت الصين القديمة بصفة خاصة بالمرايا السحرية إذ كانت هذه المرايا أشهر الوسائل السحرية التي يستخدمها السحرة في سحرهم لأنها كانت في اعتقادهم أقوى الوسائل لمحاربة الجن والشياطين . والسحر في جوهره عبارة عن الفن الذى يقصد به مهادنة الجن والشياطين وطلب عونهم على أداء الأعمال العجيبة الخارقة للطبيعة أو محاربة هؤلاء الجن وإفساد ما قاموا به من أعمال خبيثة ترمى إلى إفساد النظام الطبيعى الذى تسير عليه الحياة في هذه الدنيا .

وكان الاعتقاد أن الساحر يستطيع بسحره أن يعكس على صفحة هذه المرآة السحرية صورة الشيطان الذى تسبب في إيقاع الضرر أو المرض بالشخص الذى جاء الساحر يطلب عونه على تخليصه مما حل به من أفعال هذه الأرواح الخبيثة . فإذا ما وقعت الأنظار على صورة هذا الشيطان المنعكسة على صفحة المرآة السحرية فإن عماء يبطل ويبرأ الشخص من علته أو تنزاح عنه بليته .

ولم تذكر لنا الكتب الصينية القديمة شيئاً عن كيفية صناعة هذه المرايا السحرية على أن بعض الكتاب الصينيين القدماء قد أشار إشارة عابرة إلى هذه المرايا السحرية فقال إنها كل مرآة كبيرة الحجم بلغ منها القدم مبلغاً كبيراً . وإن مثل هذه المرايا يجب أن تحجب عن الأنظار فلا تستعمل لأى غرض من الأغراض التى تستعمل من أجلها المرايا إنما ينظر إليها فقط بقصد طرد هذه الأرواح الخبيثة التى تحل أحياناً فى النفوس البشرية فتسبب لها الكثير من البلايا والمصائب .

السحر فى مصر القديمة :

لقد كان للسحر أثره العميق فى حياة قدماء المصريين حتى إنه ليصعب علينا نحن أبناء القرن العشرين أن ندرك كيف كان المصريون القدماء يخضعون هذا الخضوع التام للسحر الأمر الذى طبع حياتهم اليومية بطابع خاص بل لقد غدا السحر إبان الأسرة الرابعة واحداً من الفنون المعترف بها من الجهات الرسمية فى الدولة المصرية ، ولذلك رأينا أن نفرّد فصلاً خاصاً من هذا الكتاب للسحر عند قدماء المصريين .

وتدل الكتابات والنقوش المصرية القديمة على أن المصريين القدماء كان لهم أيضاً باع طويل فى فنون الكهانة والتنجيم وقد

ظهر اهتمامهم بهذه الفنون منذ عهد الطفولة القديمة . وحفظت لنا أوراق البردي التي يرجع تاريخها إلى عام ١٤٥٠ قبل الميلاد كثيراً من أفعال السحرة والرقى والتعاويذ التي كان يستخدمونها السحرة لجعل عملائهم يرون في منامهم ما سوف يحدث لهم من أحداث في مستقبل حياتهم ، وهذا يدلنا على الصلة الوثيقة التي كانت بين الكهانة والسحر في مصر القديمة .

وكان قدماء المصريين يعتقدون أكثر من ذلك في طوابع السعد والنحس فبعض الأيام في أنظارهم سعيد الطالع والبعض الآخر مشؤم الطالع . وقد عثر في بعض المقابر على جداول خاصة بطوابع النجوم لها دلالات تنجيمية معينة ، كما كان للمصريين آلهة لكل شهر ولكل يوم من الشهر بل ولكل ساعة من ساعات اليوم . وكان لبعض الأعداد دلالات تنجيمية خاصة كالعدد ٧ والعدد ١٢ . ويرى البعض أن الزيج نفسه أو دائرة البروج هي من اختراع قدماء المصريين . وقد أكد بعض كتاب اليونان والرومان والقدماء أن عالم التنجيم قد اخترعه رجال الدين في مصر على أن الأغلب أن البابليين قد سبقوا المصريين في هذا المضمار .

سحر بابل :

تدل الكتابات والنقوش التي خلفها البابليون والآشوريون

وكذلك اللوحات المكتوبة بالخط المسماري، على أن فنون السحر كان لها النصيب الأكبر من هذه الكتابات والنقوش . ونستدل من هذه الآثار أن الخوف من الجن والشياطين كان الظاهرة الأساسية في ديانة البابليين والآشوريين وأن الحياة اليومية عند هذه الأقوام كانت متأثرة على الدوام بالسحر . وكانت مدينة إردو القديمة إحدى المراكز الرئيسية للثقافة السومرية موطناً كبيراً للحكمة القديمة أي لفنون السحر . وكانت المؤلفات السومرية القديمة تعج بالموضوعات السحرية كالترانيم والرقى والتعاويذ .

وقد حفظ لنا آشور بانيبال ملك آشور من عام ٦٦٨ إلى عام ٦٢٦ قبل الميلاد في مكتبته كثيراً من النصوص الدينية والسحرية وقد جمع هذه النصوص من المعابد المختلفة التي كانت منتشرة في المدن القديمة وكان أغلبها مكتوباً باللغة السومرية . والخلاف لا يزال قائماً بين العلماء في أقدمية ظهور الفلك والتنجيم بين سكان وادي دجلة والفرات . إذ يرى البعض أن ديانة قدماء البابليين كانت قائمة على التمجيم وأن جميع آرائهم ومعتقداتهم كانت متأثرة بهذا العلم وأنهم قاموا منذ أقدم الأزمنة بتدوين بعض المشاهدات والظواهر الفلكية واكتسبوا بعض المعارف الفلكية القائمة على المشاهدة ولكنها ضاعت

بعد أن اضمحلت ثقافتهم وتغلبت عليها بعض الثقافات الأخرى . ويعارض آخرون هذا الرأي ويقولون إن المعارف الفلكية لم تظهر بين سكان دجلة والفرات إلا بعد ظهور الكلدانيين على مسرح التاريخ ، بل إنهم ينكرون معرفة هذه الأقوام بالكواكب السيارة السبعة وعلامات الزيج .

ومما لا جدال فيه أن الرقم سبعة قد تواتر ظهوره في الدين والأساطير والسحر وذلك منذ الألف الثالثة قبل الميلاد . مثال ذلك الملحمة البابلية الخاصة بالخلق ففيها ذكر للرياح السبع وأرواح العواصف السبع والأمراض الحبيثة السبعة وأقاليم العالم السفلى السبعة والمناطق السبع للعالم العلوى والسماء وغير ذلك . ولم يذكر أحد تفسيراً مقنعاً لهذا التشبث بالرقم سبعة اللهم إلا لوجود سبعة كواكب سيارة تؤثر في عالمنا الأرضى تأثيراً فعالاً .

ومهما يكن من الأمر فإن المؤلفات والنصوص البابلية القديمة الخاصة بالسحر يمكن تصنيفها في ثلاث مجاميع رئيسية : فهناك النصوص التنجيمية وفيها تذكر الكواكب على أنها آلهة تؤثر في حياة الناس وفي أفعالهم ومصائرهم ثم هناك اللوحات الخاصة ببعض الوسائل المستعملة في الكهانة والتنبؤ بالغيب . أما المجموعة الثالثة فهي الرقى والتعاويذ التى كانت تستخدم

لدرء شرور السحر الأسود وطرد الأرواح الخبيثة التي تحل بالأبدان فتسبب لأصحابها الأضرار والأمراض، إذ كان الاعتقاد أن السبب في المرض يرجع بوجه عام إلى الشياطين والأرواح الخبيثة ولإبراء الشخص من مرضه يجب طرد هذه الأرواح من البدن ومن ثم كان الطب في الأزمنة القديمة يعد فرعاً من السحر .

وقد كانت هذه الأرواح الخبيثة أيضاً مسئولة عن هذه الكوارث التي تحل بالعالم من وقت لآخر كالزلازل والبراكين والعواصف الكاسحة والفيضانات المخرقة ومن ثم كان من الضروري استخدام التعاويذ لمنع عبث هذه الأرواح بالنظام العام الذي يسير العالم على مقتضاه . وقد رتبت هذه التعاويذ في لوحات مختلفة لكل نوع منها أثره الخاص في ناحية من هذه النواحي .

وكان يوجد أيضاً إلى جانب هذه اللوحات نصوص طبية وأخرى تلى في الاحتفالات المختلفة تضم بعض الطقوس والشعائر السحرية .

كذلك كان لترانيم المديح والثناء والملاحم الدينية التي لا يمكن عدها لأول وهلة بين التعازيم والرقى دلالاتها السحرية . وتدل التعازيم المختلفة على أنه كان هناك إلى جانب قوة

الألفاظ ذاتها المستخدمة في هذه التعازيم — عوامل أخرى تدخل في أعمال السحر ولها قوتها السحرية كما توضح لنا ذلك تلك التعزيم البابلية التالية :—

« إنهضى أيتها الآلهة العظيمة واستمعي لشكائى
امنحني العدالة ونحذى علماً بحالى
لقد صنعت تمثالا لساحرى ولساحرتى
لقد وقفت ذليلاً أمامك وعرضت عليك قضيتى
إنه بسبب هذا الضرر الذى ألحقاه بى
وبسبب هذه الأشياء النجسة التى تناولاها
فلتمت هذه الساحرة وامنحني الحياة أيتها الآلهة
ولتتحطم تميمة هذه الساحرة وليفسد سحرها
وليظهرني الغصن المقطوف من شجرة البينو
وليخلصني هذا الغصن . ولتبدد رائحة فى الخبيثة فى الهواء
ولينظفني عشب المشتكل الذى يملأ الأرض
وقبل أن تجعلوني فى إشراق عشب الكنكل
فلأكن فى نظافة عشب اللاردو وبهائه
إن تعويذة الساحرة خبيثة ضارة
فلترد كلماتها إلى فيها وليقطع لسانها
ولتبتليها آلهة الليل بأفة لسحرها

إن حراس الليل الثلاثة يبطلون سحرها الآثم
وليكن فيها شمعاً واسانها عسلاً
ولتذب الكلمة التي قالتها وكانت السبب في تعاستي كما
يذوب الشمع

ولتذب التعويذة التي عملتها كما يذوب العسل
ولتقطع عقدة السحر التي عقدتها إلى شطرين وليتلاشي
كل ما صنعته .

هذه إحدى التعازيم التي كانت مستعملة قديماً في بلاد
بابل وأشور ومنها يتبين أنهم كانوا يستخدمون في سحرهم
التمائيل السحرية والعقد وخصائص بعض الأشجار والأعشاب
وكانت التماثيل السحرية تصنع في ذلك العهد القديم من الطمي
والشمع والدهن وغير ذلك من المواد كما كانت تستخدم بطرق
مختلفة .

وكان السحرة البابليون يصنعون في بعض الأحيان تماثلاً
يمثل عدواً من الأعداء ثم يكبلون هذا التمثال بحيث لا يستطيع
الكلام أو الحركة فكان أثر ذلك ينصب على الشخص ذاته
الذي يمثله هذا التمثال . وكانت تصنع هذه التماثيل أيضاً كي
تحل بها الأمراض التي حلت بشخص يراد إبراءه من هذا
المرض ، وذلك بوسائل سحرية خاصة . وكانت هذه التماثيل

تذبح في بعض الأحيان وتدفن .

ولعل هذه الأعشاب الواردة أسماؤها في التعويذة السابقة كانت من الأعشاب الشائعة الاستعمال في السحر . ودلت البحوث على أنه كانت هناك مواد أخرى مستعملة في السحر مثل الحمر والزيت والملح والتمر والبصل واللحاب . كما أن هناك من الشواهد ما يدل على استخدام عصا الساحر التي لا تزال نراها إلى اليوم في أيدي من يدعون العلم بهذا الفن العجيب . وقد استعملت أيضاً الجواهر الثمينة والمواد الحيوانية المختلفة وبعض أعضاء الحيوان في الأغراض السحرية .

واستعمل السحرة البابليون أيضاً في تلك الأزمنة البعيدة الأشربة والمعاجين المختلفة ذات التأثيرات السحرية كما قاموا ببعض الشعائر السحرية كإيقاد النيران وتدخين البخور .

وتدل الأخبار والروايات المتصلة بنوح وقلقه أن بعض أجزاء هذا الفلك قد صنعت بشكل خاص له دلالة السحرية فهم يذكرون أن الصاري وأسقف قمرات سفينة نوح كانت مصنوعة من خشب الأرز وهو خشب من طبيعته إفساد أعمال السحرة والشياطين .

السحر في بلاد الإغريق :

وهذه أمة أخرى، من الأمم القديمة العريقة في الحضارة ونقصده بها أمة الإغريق التي ذاع صيتها قديماً في العلم والفلسفة والشعر والفنون القديمة . وكان الرأي عند بدء عصر النهضة والتنوير وقيام العلماء بدراسة التراث اليوناني والروماني القديم دراسة نقدية عميقة أن أمة اليونان كانت مبرأة من أعمال السحر إذا قورنت بغيرها من الأمم القديمة وأن أمة قد أنجبت أمثال أرسطو وأفلاطون واكسينيفون وأوريبيدس وغيرهم من أساطين الحكمة والفن لا يمكن أن يستهويها فن كفن السحر الذي لا يعد من الفنون الجميلة .

على أن هذا الرأي الذي يذهب إلى تبرئة اليونان القديمة من السحر والسحرة لم يقو على احتمال معاول النقد الحديث لفنون الإغريق وفلسفتهم . فإنه لا يصعب على الباحث أن يلمس آثار السحر في الديانة الإغريقية وفي التاريخ والأدب الإغريقي المليء بالرموز والكنائيات السحرية . فالأساطير الإغريقية مليئة بالأفعال السحرية العجيبة التي تنقل الكائنات من حال إلى حال وبأخبار السحرة والكائنات العجيبة التي تجمع بين خصائص الإنسان والحيوان ، كما أن مؤلفات

هزيود وهى من أقدم الآثار الإغريقية المكتوبة إن لم تكن أقدمها بها ذكر للأيام السعيدة الطالع والأخرى المنحوسة الطالع . وكان هناك الكهنة القائمون على خدمة معابد ألهة الإغريق . وقد ورد فى الإلياذة أن كاهن معبد أبوللو إله الشعر كان فى استطاعته بأعماله السحرية أن يقضى على الطاعون عندما يريد ذلك .

والإسبرطيون الذين أعجب الفلاسفة بدستورهم ونظامهم التعليمى كانت حياتهم اليومية تتسم فى الواقع بسمات الحياة اليومية البدائية التى تغلب عليها الطقوس والشعائر التى تمت إلى السحر بصلة كبيرة . كما أن المؤرخ اليونانى المشهور هيرودتس ويكنى بأبى التاريخ كان يميل بصفة خاصة إلى تدوين القصص والروايات المتصلة بالتكهنات العجيبة والهواتف التى تخرج من باطن الأرض أو تنبعث من كبد السماء فيفسرها السحرة كما يريدون ويحبون ، فكان تاريخه المشهور ملىء بمثل هذه القصص والأعاجيب كما أن كتابات اكسينيفون مليئة بأخبار القرايين والكهانة والرؤى والأحلام وما تنبى عنه من خيرات أو شرور .

ولا يقف ذكر هذه الأعاجيب والتكهنات الغريبة عند الكتاب الإغريق العاديين بل إن آخرين ممن عرفوا بالحكمة

والفلسفة مثل أفلاطون أو التعمق في الأدب مثل أوروبيدس
قد ذكروا الرقى والتعاويد والأشربة التي تولد العشق والهيام وغير
ذلك من الأعمال السحرية .

ونحن إذا أدخلنا في اعتبارنا كل هذه الشواهد الثابتة في
كتب التاريخ والأدب والفلسفة فلا يسعنا إلا القول بأن الإغريق
لم يكونوا أدل انغماساً في السحر من غيرهم من الأمم القديمة
وأن السحر كان عنصراً هاماً من عناصر الحضارة الإغريقية .

والغريب أن علم التنجيم وغيره من العلوم الغيبية لم تظهر
في بلاد الإغريق في شكلها المتقدم إلا في العهد الهليني الذي
بلغت فيه الحضارة اليونانية أوجها . وتذهب الروايات إلى أن
شخصاً يدعى أوثانسي قد نقل فنون السحر في شكلها المتقدم
إلى بلاد الإغريق في عهد الحروب التي استعرت بين الفرس
والإغريق ولم تكن هذه الفنون بدعة جديدة في نظر الإغريق
إنما كانت بمثابة صور أسمى وأكثر تقدماً من الصور السحرية
الغليظة البدائية التي كانوا يمارسونها حتى ذلك الوقت .

وقد فسر بعض الباحثين المحدثين كثيراً من الأساطير
والاحتفالات اليونانية القديمة تفسيراً سحرياً بل فسروا أيضاً
الآلعب الأولمبية والدراما اليونانية هذا التفسير السحري .
ويرى البعض في زيوس كبير آلهة الإغريق شخصية الساحر

البارع الذى فى استطاعته أن يتخذ أية صورة من صور الكائنات حتى يستطيع أن يتعقب عشيقاته وما كان أكثر من غراميات هذا الإله كما تقص علينا هذه الأساطير .

وقد غالى بعض الكتاب فربطوا بين كثير من مظاهر الحضارة الإغريقية والسحر . على أن ذلك لم يكن سوى رد فعل للدعوة التى ظهرت فى مستهل عصر النهضة وهى التى تذهب كما قلنا سابقاً إلى أن مظاهر الحضارة اليونانية كانت مبرأة من السحر إذا قيس بمظاهر الحضارة فى الأمم القديمة الأخرى . ولم تكن الفلسفة اليونانية هى الأخرى مبرأة من السحر . فقد قال زيلر Zeller وهو أعمق وأدق من كتب فى الفلسفة اليونانية إن الفيلسوف أمبيدوقليس كان يعتقد فى نفسه القدرة على السحر . نستدل على ذلك من كتاباته ذاتها فقد ذكر أن لديه القوة على مداواة الشيخوخة والمرضى وعلى إثارة العواصف أو تهدئتها وعلى استئزال المطر أو حبسه بل وعلى استدعاء الميت إلى الحياة ثانية ..

وكان أفلاطون حذراً غاية الحذر فى حديثه عن السحر فى كتبه الفلسفية وخاصة فى قوانينه . فهو يذكر أن رجال الطب والأنبياء والعرافين هم وحدهم الذين يستطيعون فهم طبيعة السموم التى تعمل عملها بشكل طبيعى وفهم أشياء أخرى مثل

التعاويد والعقد السحرية والتماثيل الشمعية . ولما كان غيرهم من الناس ليست لديهم أية معرفة يقينية عن مثل هذه الأشياء فمن شأنهم أن لا يأبهوا لها وأن يحتقروها . وهو يعترف مع ذلك أنه ليس هناك من فائدة في إقناع أكثر الناس بحقيقة هذه الأشياء وأنه من الضروري، سن القوانين لمحاربة السحر والكهانة . والظاهر أن آراء أفلاطون عن الطبيعة مشبعة بعقائد مستمدة من مجوس المشرق أو على الأقل بعقائد أكثر صلة بالسحر منها بالعلم الحديث كما أنها متمشية مع علم التنجيم . وهو يسبغ على الأشياء المادية سمة إنسية ويخلط بين الخصائص الروحية والخصائص المادية .

ويحاول أفلاطون أيضاً أن يفسر السحر تفسيراً طبيعياً أو عقلياً فهو مثلاً يقول عن العرافة عن طريق الكبد إن الكبد هو بمثابة المرآة التي تنعكس عليها أفكار المرء وصورة النفس . وهو يتحدث عن الحب الموائم بين العناصر على أنه مصدر الصحة والخصب للنبات والحيوان والإنسان وأن الحب المتهور بينها هو علة البطواعين والأمراض وأن دراسة وفهم هذين النوعين من الحب وصلتهما بدورات الأجرام السماوية وتغير فصول السنة هو ما يسمى بعلم الفلك أو علم التنجيم وأساس قانونه سيطرة الكواكب على المخلوقات الدنيا .

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية أن السحرة اليونانيين وخاصة في تساليا قد قاموا بأعمال سحرية غاية في القسوة والفظاعة . وكان معظم هؤلاء السحرة من النساء اللواتي دمرتهن الرغبة الجنسية الجارحة التي لم يستطيعوا إشباعها أو الحد من ثورتها أو العاهرات اللواتي تقدم بهن العمر فانصرف عنهن المحبون والمعجبون أو النسوة اللواتي انغمسن في كل ما هو مشين أو قبيح . لقد أكلت الغيرة قلوب هذه المخلوقات التبعسة فلم تجد أمامها من ميدان لإشباع رغباتها المكبوتة فيه إلا القبور فكانت تتسالم ليلاً إلى المقابر المظلمة وتنهك حرمة القبور المقدسة وتحتضن بشبق بالغ أجساد الشباب الباردة التي توفيت حديثاً وكانت هاته النسوة في الوقت ذاته تضممر الحسد والبغض لصغار الأطفال لأنهم في أنظارهن ثمرة هذه العاطفة المتبادلة بين الرجل والمرأة لذلك كانوا يختطفون هؤلاء الأطفال ويكتمون أنفاسهم في صدورهم البريئة انتقاماً من ذويهم لأنهم لم يستطيعوا أن يكونوا مثاهم لهم مثل هذه الذرية التي تعتبر زينة الحياة الدنيا . وقد ذكر هوراس أخبار بعض هؤلاء النسوة مثل « كانديا » وكانت هذه المرأة اليونانية تدفن الأطفال حتى رؤوسهم ثم تركهم يموتون جوعاً بينما تضع الطعام حولهم دون أن يستطيعوا الوصول إليه . ولعل أقسى هؤلاء النسوة هن اللواتي كن يقطعن

أوصال هؤلاء الأطفال ثم يقومون بإذابة شحمهم في أحواض نحاسية ويركبون من هذا الدهن الآدمي دهاناً يخلطونه بعصير بعض النباتات كالسيكران والخشخاش ثم يضمخون بهذا الدهان أجزاء حساسة من أبدانهم فيشعرون بلذة غريبة آثمة كما كانوا أحياناً يضمخون صدوغهن وآباطهن ثم يتركن أنفسهن إلى أحلام اليقظة المليئة بالشهوات الجارحة .

وكان بعض هؤلاء النسوة يخرجن إذا ما جن الليل إلى الغابات والفلوات ويجمعن على ضوء القمر بعض الأعشاب والنباتات الخاصة يستخرجون من بعضها سائلاً يعرف بشراب الحب يبيعونه لكل محب أخفق في حبه كما كانوا يستخرجون من البعض الآخر سمّاً زعافاً يبيعونه لتجار الموت وكانت هذه الأعمال كلها أساساً للسحر الأسود الذى انتشر انتشاراً كبيراً في العصور الوسطى وأخذ الناس يتعقبون النسوة اللواتى يقمن بهذا السحر الأسود فى تلك العصور ويحكمون عليهن بالموت حرقاً وقد كثر وجود هذه النسوة الساحرات فى إسبانيا وإيطاليا بصفة خاصة حتى أواخر العصور الوسطى .

ومجمل القول أن الحضارة اليونانية القديمة لم تكن مبرأة من السحر وأن الحياة اليومية فى بلاد الإغريق كانت خاضعة إلى حد كبير لتكهنات الكهان وسحر الساحرين .

الفصل الثانى

السحر عند قدماء المصريين

كان للسحر أثره البالغ على تفكير قدماء المصريين وعلى مظاهر الحياة عندهم وذلك منذ أقدم العهود التاريخية حتى إنه ليصعب علينا أن ندرك كيف كان للسحر كل هذا الأثر البالغ على تفكير القوم وأعمالهم . وهناك من الأدلة الواردة فى أوراق البردى التى تم العثور عليها ما يثبت أن السحر فى الأسرة الرابعة أى منذ أربعة آلاف سنة تقريباً كان فناً أو صناعة معترفاً بها بين الفنون والصناعات المصرية .

ومهما يكن من الأمر فإن الاعتقاد فى السحر لم يكن أمراً شائعاً فى مصر قبل عهد الأسر أو قبل العهود التاريخية المصرية فبحسب ، بل كان السحر فى مصر القديمة أقدم من الاعتقاد فى الآلهة ذاتها . ولما تطورت الحياة الدينية فى مصر وأصبحت للديانة المصرية نظمها ومعتقداتها وطقوسها وشعائرها الخاصة كان السحر لا يزال عنصراً من العناصر الأصلية فى هذه الديانة المصرية . وقد تأثر الأدب المصرى القديم وكذلك الأساطير

المصرية بالأفكار السحرية وقد يبدو ذلك على أتمه في أسطورة إيزيس وأوزوريس . وكان المصريون يلجأون إلى الرقى والتعاويد لطرد الأرواح الخبيثة بل كانوا يعتقدون أيضاً أنهم يستطيعون إرهاب الآلهة ذاتها أو استعطافها بهذه الرقى والتعاويد كما كانوا يستطيعون بها استحضار الأرواح من العالم غير المنظور وتغيير مجرى الحياة الطبيعية بالحوارق والأعاجيب .

وكان السحر أيضاً يعد من الأمور الجوهرية عند تحضير الموتى للانتقال إلى العالم الآخر . فنجد مثلاً أن إجراءات التحنيط والدفن عند قدماء المصريين كانت متصلة اتصالاً وثيقاً بالسحر فقد كانوا يتلون عند كل عملية من عمليات التحنيط الرقى والتعاويد والعبارات السحرية الخاصة التي بدونها لا يمكن أن تتم عملية التحنيط كما يجب .

ونجد أكثر من ذلك أن نصوص الأهرام المكتوبة باللغة الهيروغليفية وهي أقدم صفحة من صفحات الفكر الإنساني إذ يرجع تاريخها إلى الأسرتين الخامسة والسادسة (٢٦٢٥ - ٢٤٧٥ ق.م.) تحوى آثاراً واضحة من السحر بل لقد عدها بعض علماء الآثار مجرد مجموعة من التعاويد والرموز السحرية . كما أن المناظر والرسوم المنقوشة على جدران قبور قدماء المصريين مثل قبور نبلاء الأسرتين الخامسة والسادسة قد نقشت بقصد

سحري إذ كان القصد منها أن تتحقق محتوياتها في الحياة الأخرى .
وقد أخذ قدماء المصريين منذ الأسرة الثانية عشرة يرسمون داخل
توابيت الموتى المناظر المألوفة لدى المتوفى لهذا الغرض ذاته .
وفي عهد الإمبراطورية المصرية القديمة كان كتاب الموتى
المشهور عبارة عن مجموعة من الصور السحرية والتعاويذ
والرقى يستخدمها المتوفى عند ما ينتقل إلى الحياة الأخرى .
ولما كان هذا الكتاب لم يظهر إلا في عهد الإمبراطورية المصرية
فقد ذكر بعض علماء الآثار المصرية أنه كان يدفن أيضاً
مع الفراعنة في عهد الدولة القديمة كتاب يضم بعض الألفاظ
والعبارات السحرية وكان الغرض من هذا الكتاب وغيره من
النصوص التي تنقش على القبور والتوابيت وكذلك التماثم والتعاويذ
المختلفة إخضاع الآلهة لسلطان المتوفى حتى يستطيع إجبارهم
على تنفيذ رغباته وإرادته . ويرى البعض أن هذه النقوش
الجنائزية قد ازدادت زيادة ملحوظة في العهد المصري المتأخر
وذلك تحت تأثير الكهنة ورجال الدين .

ولم تكن تخل مظاهر الحياة اليومية عند قدماء المصريين
من آثار السحر حتى إن المصري في العهد القديم لم يكن يحضر
طعامه أو يتهيأ للنوم إلا بعد تلاوة بعض التعاويذ والصيغ
السحرية الخاصة .

ومن المعروف أيضاً أن الطب عند قدماء المصريين كان مشحوناً بالسحر والطقوس السحرية . فالعلاج الرئيسي عندهم كان عبارة عن مجموعة من الرقى والتعاويذ يتلوها عند رأس المريض فيبراً من مرضه . وكان الأطباء المصريون يستخدمون في علاجهم أنواعاً مختلفة من الأعشاب النباتية يخلطون بعضها ببعض مع تلاوة بعض الألفاظ والعبارات السحرية فتكسبها قوتها الشافية وهم كانوا يفضلون العقاقير المركبة من جملة عناصر على العقاقير البسيطة التركيب . كما كانوا يستخدمون بعض أجزاء الحيوان في تركيب الأدوية والعقاقير خصوصاً ما كان متصلاً منها بالأعضاء التناسلية إذ كانوا يعتقدون أنها تمنح الحياة وتطيلها . واستعملوا أيضاً الأجزاء القادرة من جسم الحيوان إذ كانوا يرون أنها طاردة لشياطين الأمراض وذلك بسبب خصائصها الباعثة على الاشتزاز .

والظاهر أن المصريين القدماء لم ينظروا إلى الأمراض على أنها من أفعال الجن والشياطين والأرواح الحبيثة بمثل القدر الذى كان عليه هذا الاعتقاد عند البابليين والأشوريين . على أن ما لدينا من كتابات ونصوص مصرية قديمة لا تقدم لنا المعلومات الكافية في هذا الموضوع ، ولعل السحر في مصر القديمة كان يستخدم لمعالجة الأمراض بوجه عام سواء أكان

المرض ينسب إلى فعل الأرواح الشريرة أو يرجع إلى أسباب أخرى . .

وقد ازداد الالتجاء إلى السحر في عهد الدولتين الوسطى والحديثة أكثر مما كان عليه الحال في الدولة القديمة نستدل على ذلك من وفرة النقوش والكتابات السحرية التي تم الكشف عنها ويرجع تاريخها إلى هاتين الدولتين .

وكانت مصر القديمة موطن الفنون والصناعات المختلفة ويستدل من تاريخ هذه الفنون والصناعات أنه لم تكن تم أية عملية من العمليات الصناعية أو الكماوية إلا بمصاحبة بعض الصيغ الدينية والعبارات السحرية التي كانت تعتبر أساسية لنجاح هذه العمليات كما كانت أساسية في إبراء المرضى .

ويرجع علم الكيمياء القديم إلى أعمال المصريين القدماء المشتغلين بصياغة الذهب والأخلاط المعدنية من ناحية كما يرجع من ناحية أخرى إلى نظريات وآراء فلاسفة الإغريق عن أصل العالم والمادة الأولى والعناصر الأربعة . ثم إن كلمة كيمياء ذاتها Chemistry مشتقة هي نفسها من اسم مصر القديم وهو « كمت » Qemt ومعناه الحرفي أسود دلالة على طمى النيل . وكان يطلق هذا الاسم أيضاً على المسحوق الأسود الذي كان يستخرج من الزئبق أثناء القيام بتركيب الأخلاط المعدنية

المختلفة . ويقول بعض المؤرخين إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن هذا المسحوق هو أساس جميع المعادن وله خصائص عجيبة غريبة وكانوا ينظرون إليه على أنه من عين الجسد الذى سيكون لأوزوريس فى العالم السفلى وكلاهما أصل الحياة والقوة فى أنظار قدماء المصريين .

وكانت هناك صابة وثيقة بين السحر المصرى والسحر اليهودى يدل على ذلك الإشارات الكثيرة التى تؤيد هذه الحقيقة الواردة فى كتب الأدب والدين .

ومن المعلوم أيضاً أن اليونانيين والرومانين وغيرهم من أهل العالم القديم كانوا يرون أن السحر المصرى أسمى بكثير وأكثر عمقاً من سحر البلاد الشرقية الأخرى . وكان سحرة البلاد الأخرى القرية من مصر يسعون بجهدهم لتقليد أعمال السحرة المصريين والتشبه بهم فى كل ما يصنعون .

ومعلوم من القرآن والكتاب المقدس أن النبي موسى كان من الإسرائيليين الذين شبوا فى بلاط فرعون وبرزوا فى فنون السحر . وقصة موسى مع سحرة فرعون معروفة مشهورة إذ ألقى سحرة فرعون حبالهم وعصيهم فإذا هى حيات يركب بعضها بعضاً ثم ألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبین ابتلع جميع ما ألقى السحرة من حبال وعصى . ثم إن موسى قد شق البحر

أيضاً بعصاه عندما خرج هو وجنوده من مصر إلى فلسطين وهذه كلها أعمال واردة في الكتب المقدسة والتواريخ وهي دليل على ما بلغه السحر في مصر في ذلك العهد البعيد .

وكان السحر في الوقت الذي تبارى فيه موسى مع سحرة فرعون قد بلغ منتهى ازدهاره وعنفوانه وأصبح عنصراً هاماً من عناصر الديانة المصرية .

ويقال إن ولد رمسيس الثاني كان مبرزاً في فنون السحر وقد اشترك مع سحرة فرعون في المباراة السحرية مع موسى . وذلك حوالي عام ١٣٠٠ قبل الميلاد . ولشيوع السحر في مصر القديمة كان بعض الناس في الزمن القديم يعتقدون أن مصر مسكونة بجنس من السحرة الجبابرة . ولقد غدا اسم مصر نفسه مرادفاً لكلمة سحر .

ويذهب علماء الآثار المصرية إلى أن الشعائر والطقوس السحرية ترجع إلى ما قبل عهد الأسر بل وإلى ما قبل العهد التاريخي . وتذهب الأساطير إلى أن شم ولدنوح جاء إلى مصر وهو في الثامنة من عمره وذلك بعد الطوفان بمائة وتسعين عاماً وحكم مصر لمدة ١٦١ سنة أخرى وكان السحر وقتذاك في مرتبة عالية . وتذهب الرواية اليهودية إلى أن نوحاً نفسه كان ساحراً . وقد حكى القصص الكثيرة الواردة في الكتابات المصرية

واليونانية الإجراءات السحرية لإحياء الموتى . ومعروف أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الموتى سوف يبعثون في الحياة الأخرى ولكن هناك روايات تدل على أن بعض محاولات السحرة المصريين كانت ترمى إلى إعادة الحياة أو بوجه أصح إلى إحياء البدن بعد موته وأن هذه المحاولات قد تمت بنجاح أكثر من مرة .

وقد حفظت لنا بعض الأساطير المصرية الكثير من الأعاجيب التي كان يقوم بها السحرة في مصر القديمة منها أنهم كانوا يصنعون التماثيل على هيئة التماسيح ثم يقرأون عليها بعض التعاويذ ويلقون بها في الماء فتقلب تماسيح حية تفرس كل من يقترب منها أو يشقون الماء بلمسة من عصيهم فيستطيع أن يرى المشاهد قاع البحيرة أو النهر مثلاً . وتذكر الروايات أن الملك خوفو مشيد الهرم الأكبر كان يلذ له مشاهدة أعمال السحرة وأعاجيبهم . ففي يوم من الأيام كان يتحدث مع ولده الأمير ددف حور عن عجائب ما قام به السحرة فقال له الأمير إنه يعرف كثيراً من قصص هؤلاء السحرة ولكنه سوف يحدثه عن ساحر لا يزال على قيد الحياة يدعى ددى وهو يبلغ من العمر عشرين ومائة سنة ولكنه على الرغم من كبر سنه يأكل في اليوم خمسمائة رغيف إلى جانب فخذ عجل ويشرب

مائة قدر من اللمعة وفي استطاعته أن يرجع الحياة إلى جسد قطع رأسه بأن يضم الرأس إلى الجسد ، وفي استطاعته أيضاً أن يجعل أسداً يتبعه دون أن يقوده بحبل . وقد رغب خوفو في رؤية هذا الساحر ومشاهدة أعاجيبه فطلب من ولده الأمير ددف حور أن يحضر هذا الساحر ، وكان يعيش في « دد سنفرو » إلى بلاطه . فأعدت السفن وأبحر الأمير في النيل مصعداً حتى وصل مدينة دد سنفرو حيث رست السفن ومن ثم سار في محفته المصنوعة من الأبنوس إلى مسكن الرجل الكهن فوجده راقداً على حصير يدلك ساقيه أحد الخدم . فتقدم إليه الأمير وسأله عن حاله ثم عرض عليه رسالته وأنه قادم إليه ليدعوه باسم أبيه الملك خوفو لكي يحضر إلى بلاطه ويكون موضع الرعاية والإكرام وأن يقوم بعرض بعض أعماله السحرية . على الملك الذي يحب أن يرى بنفسه الأعمال التي اشتهر بها ددى في أنحاء البلاد كلها . وقد رحب ددى بالأمير وأظهر استعداداه لتأدية دعوة الملك فمد الأمير ددف حور يده إليه وساعده على الوقوف ومشى معه حتى الشاطئ ماداً بذراعه إليه ليعتمد عليها وهكذا سافرا معاً في سفينة الأمير متجهين نحو الشمال . وقد وضع تحت تصرف هذا الحكيم الساحر سفينتان لنقل أفراد أسرته وكتبه .

وعندما وصل الراكب إلى بلاط خوفو أسرع الأمير ددف حور ودخل على الملك خوفو لينبئه بحضور الساحر . وما إن سمع خوفو نبأ حضوره حتى أمر بأن يدخل عليه على الفور . وذهب جلالتة إلى بهو الأعمدة بالقصر حيث أدخلوا عليه ددى هذا فقال جلالتة : « كيف ياددى أنى لم أرك حتى الآن ؟ » فقال ددى : « من يدع يجيب ، لقد دعانى الملك وها قد أتيت . » فقال الملك : « أحققاً ما يرويه الناس عنك من أنه فى وسعك إعادة الرأس المقطوع إلى الجسد ؟ » فأجاب ددى : « نعم يا سيدى الملك إننى أستطيع ذلك » . فقال الملك : « أحضروا لى أسيراً من السجن لتنفذ فيه عقوبته » فقال ددى : « أرجو أن لا يكون هذا فى إنسان يا سيدى الملك . فليأمر الملك بتجربة ذلك فى حيوان » . فجاء له بإوزة فصل عنها رأسها ووضع جسدها فى الجانب الغربى من بهو ووضع رأسها فى الجانب الشرقى من بهو وتلا ددى تعويذة سحرية فوقفت الإوزة وتحركت وكذلك تحرك الرأس ولما بلغ كل منهما الآخر كانت الإوزة تصبح ثم جىء له ببطة فجرى لها ما جرى للإوزة . بعد ذلك أمر الملك بإحضار عجل فصل رأسه عن جسده فقرأ ددى تعويذة سحرية فوقف العجل . وهكذا أتى ددى بكثير من الأعاجيب مما جعل الملك خوفو يثق فى حكمته وفى قوته السحرية .

ومهما يكن من الأمر فقد كان في استطاعة المصريين أن يقوموا بأفعال عجيبة غريبة لا تقف عند حد إرهاب الشياطين أو استحضار أرواح الموتى أو إحياء الأجساد الآدمية والحيوانية بعد موتها بل كانوا يقومون بأفعال سحرية يقصدون بها إرهاب إله الشمس أو إله القمر وغيرهما من الكائنات السماوية أو إجبار الأجرام السماوية على أن تبوح بأسرارها وبما سيحدث في المستقبل وألا يعملون على زعزعة السماوات وغير ذلك من الأعمال التي فوق قدرة البشر . وكانت هذه الأعمال وأمثالها تحتل مكانة عالية في أعين الكهنة المصريين وفي تعاويذهم لأنهم هم أيضاً كانوا يمارسون السحر وكانت تعاويذهم تضم في بعض الحالات تهديدات موجهة إلى الآلهة ذاتها .

على أن قدماء المصريين قد برزوا بصفة خاصة في صنع الأحجية والتماثم وكانت التيمة الشائعة هي الجعران المصنوع غالباً من الصلصال أو الحجر . وكان الجعران في مصر القديمة رمزاً لإله الشمس أى مصدر الحياة وكان الاعتقاد أنه إذا وضع الجعران في القبر مع الميت فإن له القدرة على إعادة الحياة إلى هذا الميت ، وكان يتعين في هذه الحالة تلاوة بعض التعاويذ والألفاظ السحرية على جسد المتوفى قبل وضعه في القبر وقد انتقلت هذه التماثم من مصر إلى بلاد الإغريق .

ومن السمات المتصلة بالاعتقاد السابق هو أنه لكى يجبر الساحر الأرواح والآلهة على إطاعة أوامره وإرادته سواء أكانت إرادة طيبة أو شريرة كان عليه أن يكون على دراية بالألفاظ الخاصة الباعثة على القوة والسلطان وعلى معرفة بأسماء الآلهة وهو بهذا يكون له القدرة على الأرواح والآلهة مهما كان عددها وقوتها ونسخيرها وفق إرادته .

ولم يكن البشر وحدهم هم الذين يمارسون السحر في مصر القديمة بل كانت الآلهة أيضاً لا تستغنى عن السحر في نصريف أمورها إذ كانت تتخذ التمايم للحماية وتستخدم التعاويذ والصيغ السحرية لكى يقهر بعضها البعض وكانت إيزيس من دون جميع الآلهة الآخرين ربة السحر التى اشتهرت بوصفها عظيمة الشأن فى كلمات السحر .

وكانت الصيغ السحرية التى يستعملها المصريون تنشأ غالباً عن فكرة واحدة فقد كان الساحر يفكر فى حادث من حوادث الآلهة يكون هذا الإله قد أصاب فيه نفس النجاح الذى يود ذلك الساحر أن يحققه لنفسه . فكان يتخيل نفسه كما لو كان هو الإله ويتلو نفس الكلمات التى فاه بها الإله فى ذلك الحادث ، وما دام أثرها فيما مضى كان فعالاً قوياً فقد كان الساحر واثقاً من نفعها وإتيانها بالفائدة فى حالته هذه أيضاً .

فإذا أراد مثلاً أن يبرد حرقاً ويشفيه فإنه كان يستعمل دواء يتكون من لبن امرأة تكون قد أنجبت ولداً بعد أن يتلو عليه الصيغة الآتية : « إبنك حوريس يحترق على الأرض الجحافة ، هل هناك ماء ؟ لا ماء هناك . إن الماء في في ونيل يجري بين ساقى إني آت لأطفى النار » وواضح أن هذه الكلمات قالتها إيزيس في الأسطورة المصرية الخالدة المعروفة باسم « إيزيس وأوزوريس » فإن خادمة إيزيس تنادىها لتخبرها بأن الكوخ الذى أنحفت فيه الطفل الصغير حوريس من اضطهاد طيفون قد أمسكت به النار فتصرخ مرتاعة طالبة ماء ولكن لم يكن هناك ماء فى متناول اليد ولكن الإلهة إيزيس الذكية عرفت كيف تساعد نفسها فى هذا المأزق الحرج وتنطق بهذه الكلمات السابقة الذكر .

وكان الساحر يعتقد فى أن ترديده لهذه الكلمات بعينها التى فاهت بها الإلهة إيزيس سوف يطفى آلام الجرح المحروق . ولم يكن الأمر يخرج عن ذلك فيما يتصل بالرق والتعاويذ التى كانت تتلى على العقاقير المختلفة مثال ذلك العقار الطارد للزكام وهو لبن امرأة تكون قد أنجبت ولداً إذ كانت تتلى عليه التعويذة التالية :

« ألا فلتذهب أيها الزكام يا ابن الزكام ، يا من تحطم

العظام وتفسد الدماغ وتفصل الدهن وتمرض الفتحات السبع في الرأس ، إن خدم رع يتوسلون إلى تحوت - انظر إني أحضر وصفتك إياك ، ودواءك إليك : لبن امرأة أنجبت ولداً وكرات العطور . إن هذا يطردك وإن هذا يعافيك ، إن هذا يشفيك ، وإن هذا يطردك . اخرج على الأرض - رائحة كريهة - رائحة كريهة (١) .
ورقية البرد هذه مأخوذة من أسطورة خاصة بشيخوخة إله الشمس ومرضه . فالإله رع قد أصابه برد أدار رأسه فالتمس أتباعه من إله العلم دواء فأحضره الإله في الحال وأعلن أن المرض لا يلبث أن ينصرف عنه .

وإذا كان الساحر في هذه الأحوال يردد كلمات الإله ويستعين بها في أعماله السحرية ففي أحوال أخرى كان يكفيه أن يدعى أنه هو الإله الذي يرغب أن يمتلك قوته .

وكان السحر يزداد أثره ومفعوله إذا استطاع الساحر بدلا من استخدام الاسم العادي للإله أن يسميه باسمه الحقيقي أى بذلك الاسم الخاص الذي كان يمتلكه كل إله وتستقر فيه قوته فكل من عرف هذا الاسم الحقيقي اكتسب قوة صاحبه . فالإله إيزيس قد استطاعت أن تجعل إله الشمس يكشف

(١) نقلا عن كتاب مصر والحياة في العصور القديمة تأليف إدولف

إرمان ، الترجمة العربية ، ص ٣٨٣ .

لها عن اسمه الحقيقي الخفى ومن ثم أصبحت تستمتع بنفس القوة
التي كان يستمتع بها هذا الإله . ومن أجل هذا كانت التعويذة
التالية التي تشير إلى هذا الاسم من أقوى التعاويذ ضد التماسيح :
« أنا المختار من بين الملايين ، الذي يخرج من العالم السفلي
الذي لا يعرف اسمه أحد

إذا نطق اسمه على مجرى الماء جف

وإذا نطق اسمه فوق اليابسة جعل النار تشتعل

أنا شو ، صورة رع الذي يجلس في عين أبيه

إذا كان هناك أحد في الماء (أى التماسيح) يفتح فمه

وإذا ضرب بذراعيه جعلت الأرض تسقط في الماء

وجعلت الجنوب شمالا والأرض تنقلب رأساً على عقب » .

وكانت الصيغ السحرية على أشد ما تكون إذا تليت

بصوت مرتفع كما تكون أشد أثراً إذا كتبت أو نقشت وهذا

يفسر لنا كثرة الصيغ السحرية التي نقشت على المقابر وعلى

توابيت الموتى . وكان الاعتقاد أنه كلما زاد عدد مرات كتابتها

زاد اليقين في أثرها وقوة مفعولها .

وكانت الصيغ السحرية تتلى على أشياء مختلفة فتكسبها

قوة سحرية خالدة . فمثلاً إذا تليت تعويذة التماسيح السابقة

على بيضة مصنوعة من الطمي وحملها معه البحار في سفينته

فإن التمساح الذى يطفو على سطح الماء مهدداً البحار لا يلبث أن يغرق فى جوف الماء .

كما كان فى الإمكان عمل أشكال وتمائيل من الورق أو الشمع وتلاوة التعاويذ عليها فإذا ما نقلت هذه الأشكال والتمائيل نخلصة إلى بيت العدو جلبت عليه المرض والشقاء . وقد ذكرت الروايات أنه فى عهد رمسيس الثالث دبر أشخاص من البيت المالك مؤامرة على الملك وكان الحريم هو مركز هذه المؤامرة إذ كان للملك محظية تدعى « تى » تأمرت مع سيدات أخريات من البيت المالك ضد مولاهن الملك بقصد تنصيب « بنتورع » ولد « تى » على العرش . وقد استجلت نساء القصر فى سبيل الوصول إلى هذا الغرض جميع الوسائل حتى إنهن لجأن إلى السحر لكى يحدثن الضرر بالملك ، فإن المشرف على الأبقار الملكية وهو رجل على المقام حصل على كتاب سحرى من مكتبة فرعون الخاصة وصنع طبقاً لمواصفات الكاهن دى معينة من الشمع تليت عليها التعاويذ وهربت إلى القصر بقصد إحداث الضرر والهلاك للملك .

واعتماد المصريون القدماء أيضاً أن يصنعوا دى صغيرة تمثل خدام المتوفى والآنية التى كان يستعملها فى حياته ثم تدفن فى المقبرة مع المتوفى بعد أن تملأ بالقوة السحرية عن طريق تلاوة

الصيغ السحرية وذلك بقصد أن يستعملها المتوفى في حياته الثانية وكان ذلك هو الحال بالنسبة للحلى الصغيرة المصنوعة من الحجر أو القاشاني وتدفن مع الجثث المحنطة .

وكانت هناك تيممة تصنع من العقيق وتلى عليها هذه الكلمات : « يادم أزييس ، ويا سناء إيزيس ، وقوة إيزيس السحرية ، ويا تيممة تحمى هذا الرجل العظيم . حذار من أن تأتي ضرراً يصيبه » . فإذا ألبس المتوفى هذه التيممة فإن إيزيس تحميه ويبتهج حوريس ويقر عيناً حين يراها .

ولم يكن استخدام هذه التائم مقصوراً على الموتى فحسب بل كان الأحياء أيضاً يعلقونها بخيوط حول رقابهم للحماية . وكانت هناك أنواع مختلفة الأشكال من هذه التائم توضع كقطعة وسطى في عقود من الخرز عثر على الكثير منها في أقدم المقابر . وفي العصر المتأخر أصبحت الآلهة والحيوانات المقدسة نفسها لا تستغنى عن مثل هذه الوقايات .

وليس من شك أن هذا الاعتقاد الراسخ في قوة السحر قد عاق تقدم الوعي الثقافي عند قدماء المصريين إذ من ذا الذى يجشم نفسه اتباع الطريق الطبيعى المعتاد الذى غالباً ما يكون طويلاً وصعباً للوصول إلى نتيجة من النتائج في حين أنه يستطيع الوصول إلى نفس هذه النتيجة عن طريق القوى السحرية .

والطب عند قدماء المصريين كان مليئاً أيضاً بالرقى والتعاويذ التي كانت تقرأ على العقاقير المختلفة لتكسيها القوة اللازمة .

مثال ذلك كان من الواجب على المرء عند نزع كل ضهاد أن يتلو الصيغة التالية : « قد خلص قد خلص بوساطة إيزيس . لقد خلص حوريس بواسطة إيزيس من كل شر اقترفه أخوه سيت نحوه عندما قتل أباه أوزوريس . أى إيزيس ، أيتها الساحرة العظيمة ، خلصيني من جميع المساوئ الحمراء ومن مرض الإله ومرض الآلهة . ومن الموت ، والموت ، ومن العدو ، والعدوة اللذين يعترضاني كما تخلصت أنت وكما ولدت ابنك حوريس لأنى دخلت النار وخرجت من الماء . . . » .

وكان المريض عند تناول الدواء عليه أن يتلو التعويذة التالية : « تعال أيها الدواء تعال واطرده من قلبي ومن أعضائي هذه ، فالرقى عظيمة المفعول فى الدواء » .

الفصل الثالث

سليمان الحكيم

بين النبوة والسحر

تذهب الروايات المختلفة إلى أن سليمان الحكيم كان أعظم السحرة على الإطلاق فقد كان له السلطان المطلق على الإنس والجن وسخر الله له الريح وكان يعرف منطق الطير والحيوان والهوام جميعاً ..

والواقع أن السحر لم يرد في القرآن مرتبطاً باسم سليمان إلا في آية واحدة من سورة البقرة وهي : « واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولوا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

والذى عليه رأى أكثر المفسرين أن اليهود سواء من كان منهم فى زمن سليمان عليه السلام أو فى زمان محمد عليه الصلاة والسلام كانوا من السحرة الذين أتقنوا هذا الفن . وقد ذهب هؤلاء السحرة من اليهود إلى أن سليمان إنما أوجد هذا الملك العريض والجواه العظيم بسبب السحر به سخر الإنس والجن والريح التى تجرى بأمره .

ومن الواضح أن فى القرآن والتوراة إشارات كثيرة إلى عجائب الأفعال والحاصل التى كانت لهذا النبي العظيم . فى سورة الأنبياء الآيات : « ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » . « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين . » . « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين » .

وفى سورة النمل الآيات : « ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين » . « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » . وفى سورة سبأ الآيات : « واسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر . وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب

السعير» . «يعملون له ما يشاء من محاريب وتبائيل وجفان كالجواب
وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادى الشكور» .
« فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل
منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا
فى العذاب المهين » .

لقد حكم سليمان أرض الميعاد بعد وفاة أبيه داود وكان
ثالث ملوك إسرائيل وكان سنه عندما اعتلى العرش ثلاث عشرة
سنة وقد ورث عن أبيه داود نبوته وحكمته وعلمه ومملكه دون
سائر أولاده وكان لداود عليه السلام تسعة عشر ابناً .

وكان أبوه يشاوره فى كثير من أمور ملكه مع صغر سنه
وذلك لوفور عقله وعلمه وحكمته . وتذهب الرواية أن الله
تجلى لسليمان فى منامه فسأله أن يهبه الحكمة فوهبه الله الحكمة
ثم وهبه أكثر من ذلك الثراء العريض والمجد العظيم وغير ذلك
من أنواع المناقب والمواهب . وكان ملكه ما بين الشام واصطخر
وقيل إنه ملك الأرض كلها .

وواضح من هذه الآيات القرآنية أن سليمان كان يسيطر
على شياطين الإنس والجن فكان يسخر الجن لأغراضه كما
كان يسخر الريح ومختلف الحيوان والطيور . ولكنه لم يكن يأتى
بهذه الأفعال العجيبة بفعل السحر إنما كان ذلك بإذن من

ربه تعالى وهب سليمان هذه المناقب والمواهب وخصه بها .
 فسليمان الحكيم لم يكن ساحراً بالمعنى المقصود بهذه الكلمة
 إنما قد خصه الله بعلم من عنده وميزه بهذه الصفات والملكات
 وكان لها سليمان من الشاكرين . غير أن من قبائح أعمال اليهود
 أنهم نبذوا كتاب الله وأقبلوا على السحر ودعوا الناس إليه وكان
 هذا شأنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم إن أكثر
 اليهود ينكرون نبوة سليمان عليه السلام ويعدونه ملكاً من ملوك
 الدنيا . وكانوا يرون أن سليمان إنما أقام هذا الملك العريض
 بسبب السحر .

والذي جاء في الروايات الإسلامية أن الشياطين كانت
 تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من
 كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت أو غيث أو أمر
 ثم يأتون الكهنة فيخبرونهم بما سمعوا فتحدث الكهنة الناس
 بذلك فيجدونه كما قالوا حتى إذا أمنتهم الكهنة كذبوا لهم
 وأضافوا على ما استمعوا الكثير من الأكاذيب يلفقونها ويلقونها
 إلى الكهنة . وقد دون الناس ذلك الحديث في الكتب وفشى في
 بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب . وكانوا يقولون إن هذا علم
 سليمان وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم وإنه إنما وجد ذلك
 الملك العريض والجاه العظيم بسبب السحر به سحر الجن

والإنس والريح التي تجري بأمره .

ولما علم سليمان بذلك بعث في الناس من جمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسیه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من كرسیه إلا احترق . وقال لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه . فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون حقيقة هذا النبي العظيم وجاء بعد ذلك جيل آخر من الناس تمثل الشيطان في صورة إنسان ثم أتى نفرًا من بني إسرائيل فقال هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا نعم قال فاحفروا تحت عرش سليمان وذهب معهم فأراهم المكان فقام ناحية فقالوا له فادن قال لا ولكني هنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم فشا في الناس بعد ذلك أن سليمان كان ساحراً .

واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب . فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم جعل يذكر الأنبياء حتى ذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء وإنما كان ساحراً يركب الريح فأنزل الله عذر سليمان « واتبعوا ما تتلوا الشياطين . . . » الآية .

غير أنه لم يكن من السهل أن تنتزع من العقول ذكرى تلك الآراء التي زورها اليهود على الناس بأن سليمان كان ساحراً عظيماً بل كان عظيم السحرة على الإطلاق والتي ظلت مسيطرة على الأذهان قروناً طويلة حتى كان الكثيرون لا يعرفون من أمر سليمان إلا هذه الناحية السحرية وهذه الأفعال والمواهب العجيبة التي أشار إليها القرآن والكتاب المقدس .

وقد أدخلت على سيرة هذا النبي الكريم الكثير من القصص والأساطير مما نراه في قصص ألف ليلة وليلة وغيره من الكتب ، بل إن كثيراً من كتاب الفرس والعرب والترك مثل الفردوسي وسعد الدين وإسحق بن إبراهيم وأحمد الكرمانى وشمس الدين السيواسى قد بالغوا في ذكر أعاجيب سليمان وذكروا كثيراً من تفاصيل حياته التي أغفلها اليهود بحيث غدا سليمان بن داود في كتبهم عبارة عن شخصية أسطورية دون أن يكون لها ضرب على الإطلاق في كتب الأدب الأخرى حتى ولا في أساطير الهند المغرقة في الخيال . فسليمان في مؤلفات هؤلاء الكتاب وأمثالهم ليس أجكم وأغنى ملوك الأرض فحسب بل إن علمه قد جعله أقوى الرجال وله الأمر على جميع الإنس والجن في الأرض والسماء كما دان لسلطانه كل ما في الماء والأرض والهواء من مخلوقات بل إن النباتات ذاتها قد باحت له بأسرارها وخواصها .

ويذهب الباحثون في تاريخ السحر أن هذه الكتب والرسائل السحرية التي تنسب إلى سليمان كانت الصلة بين فنون السحر في المشرق والبلاد الغربية .

وقد أفاض بعض كتاب العرب في ذكر تفاصيل الأعاجيب التي كان يقوم بها سليمان فعند أغلب هؤلاء الكتاب أن سليمان لم يكن يركب الريح على بساطه منفرداً إنما كان يركب معه رجال حاشيته جميعاً وكان هذا البساط من الحرير الأخضر المنسوج بالذهب وفي رواية يهودية أن هذا البساط كان فرسخاً في فرسخ وأن الطير كانت تظله بأجنحتها من وهج الشمس . وهم يرجعون جميع قوى سامان وسلطانه على جميع الكائنات وخاصة الجن إلى خاتم سحري في أصبعه كان مرصعاً بجواهر الملائكة الموكلة بالعناصر الرئيسية الأربعة كما كان عليه الاسم الأعظم . وفي الخبر أن سليمان سأل الملاك ميخائيل أن يعاونه على التغلب على الجن والشياطين فأعطاه هذا الخاتم السحري وبه استطاع أن يسحر الجن وأن يحصل منهم على جميع المعلومات المتصلة بهذا العالم غير المنظور أي عالم الجن والشياطين وأن يعرف أسمائهم والرموز التي تشير إلى كل واحد منهم بحيث إذا ذكر هذا الرمز أتاه الجن طائعاً ملبياً لجميع ما يأمره به . وهم يذكرون أكثر من ذلك أن هذه المعلومات قد

ضمناها كتابه الذى ينسب إليه وهو المعروف باسم « مفتاح سليمان » .

ومن أخبار سليمان أيضاً فى عالم السحر أنه كان يستطيع اجتذاب المردة والشياطين وحبسهم فى القماقم ثم ختمها بخاتمه فلا يستطيع الجنى الخروج من القمقم ما دام خاتم سليمان عليه كما ورد فى قصص ألف ليلة وليلة من خبر الجنى الذى حبسه سليمان فى القمقم مدة عشرة آلاف سنة . ثم هناك أيضاً درع سليمان وكان يتخذ دريعة ضد أعمال الشياطين .

وكان الهدهد هو رسول سليمان إلى الملوك فى كافة أنحاء الأرض وهو الذى أتاه بنجر بلقيس ملكة سبأ مما لا داعى لذكره فى هذا المقام .

وقد نخص الله سليمان عليه السلام بالخليل الجياد العربا وقيل إنه ورث من أبيه داود ألف فرس وكان أبوه أصابها من العمالة . وتذهب الرواية أن سليمان صلى صلاة الظهر وقعد على كرسيه فعرض عليه منها تسعمائة فاشتغل بحسنها وكثرتها والإعجاب بها حتى غابت الشمس وفاتته صلاة العصر ولم يعلمه أحد بذلك هيبة له فاعتم لذلك وقال ردوها على فردوها فحرقها بالسيف وقربها إلى الله تعالى وبقي منها مائة فرس وما فى أيدي الناس من الخيل العربا فهي من نسل تلك المائة .

ومهما يكن من الأمر فإننا لا نستطيع أن نخرج بنتائج إجمالية موثوق بها من هذه القصص وأمثالها . فالعلماء في العصور القديمة الذين انصرفوا إلى دراسة الظواهر الطبيعية والأعشاب النباتية وخواص الأحجار المختلفة والأجرام السماوية كانوا يوصفون عادة بأنهم من السحرة بل إننا نجد عالماً مثل البرنوس ماجنوسى Albertus Magnus أسقف راتسبون في العصور الوسطى وكان له مجد يقارب مجد سليمان من حيث اتصاله بالجن والشياطين قد وصف بالسحر وذلك لأنه كان في واقع الأمر من علماء الطبيعة البارزين .

هذا وتختلف الروايات في ذكر وفاة سليمان فتذهب بعض الروايات أن الله جل جلاله قد تخلى عنه في أخريات أيامه لخروجه عن جادة الصواب وأن سليمان عند ما جاءه الموت سأل الله أن يخفى خبر موته إلى أن تم الأعمال العظيمة التي كان قد بدأ فيها بمساعدة الشياطين . على أننا سوف نكتفى بذكر الرواية الإسلامية في هذا الموضوع فهي تذكر أن سليمان قال ذات يوم لأصحابه إن الله تعالى قد آتاني من الملك ما ترون وما مر على يوم في ملكي صاف من الكدر وقد أحببت أن يكون لي يوم واحد يصفو لي إلى الليل ولا أغتم فيه وليكن ذلك اليوم غداً . فلما كان من الغد دخل قصره له

وأمر بإغلاق أبوابه ومنع الناس من الدخول عليه ومنع من رفع
 الأخبار إليه لئلا يسمع شيئاً يسوءه ثم أخذ العصا بيده ووضعها
 فوق خصره واتكأ عليها ينظر إلى ممالكه إذ نظر شاباً حسن الوجه
 عليه ثياب بيض قد خرج عليه من بجانب القصر فقال له
 السلام عليك يا سليمان فقال وعليك السلام كيف دخلت على
 هذا القصر بغير إذن وقد منعت من دخوله أما منعك الباب
 والحجاب ، أما هبتني حين دخلت قصرى بغير إذن ، فقال
 أنا الذى لا يحجبني حاجب ولا يدفعنى الباب ولا أخاف الملوكة
 ولا أقبل منهم الرشا وما كنت لأدخل هذا القصر بغير إذن .
 فقال له سليمان فمن أذن لك فى دخوله فقال له ربى . فارتعد
 سليمان وعلم أنه ملك الموت فقال له أنت ملك الموت قال نعم
 قال فمى جئت قال لأقبض روحك قال يا ملك الموت هذا
 يوم أردت أن يصفو لى ولا أسمع فيه ما يغمنى فقال يا سليمان إنك
 أردت يوماً يصفو لك فيه عيشك حتى لا يغمك فيه شىء وذلك
 يوم لم يخلق فى الدنيا فارض بقضاء ربك فإنه لا مرد له ، قال
 فاقبض كما أمرت فقبض ملك الموت روحه وهو متكئ على
 عصاه .

وذكروا أن الشياطين كانت تجتمع حوله وحول محرابه
 ومصلاه أينما كان وكان للمحراب بابان باب بين يديه وباب

خلفه فقال بعض الشياطين لصاحبه إن كنت جليداً فادخل
 من الباب الذى بين يديه وانخرج من الباب الذى خلفه ،
 فدخل ذلك البعض ولم يكن شيطان ينظر إلى سليمان فى
 المحراب إلا احترق . فمر ذلك الشيطان فلم يسمع صوته ثم رجع
 فلم يسمع فوقف بالبيت فلم يحترق فنظر إلى سليمان وقد سقط
 ميتاً فخرج فأخبر الناس أن سليمان قد مات ففتحوا عليه
 فأخرجوه فوجدوا منسأته — وهى العصا بلغة الحبشة — قد
 أكلتها الأرضة فلم يعلوها منذ كم مات فوضعوا الأرضة على
 العصا فأكلت منها يوماً وليلة ثم حسبوا على ذلك النحو فوجدوه
 قد مات منذ سنة . وإلى هذا يشير القرآن « فلما قضينا عليه
 الموت ما دهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما
 خربتينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب
 المهين » . ذلك أن الجن كانوا يعملون بين يديه وينظرون إليه
 ويحسبون أنه حى ولا ينكرون احتباسه عن الخروج إلى الناس
 لطول صلاته قبل ذلك قايقن الناس أن الجن كانوا يكذبون فى
 ادعائهم علم الغيب فلو أنهم علموا الغيب لعلموا موت سليمان
 ولم يلبثوا فى العناء والعذاب سنة يعملون له .
 وكان عمر سليمان عند موته ثلاثاً وخمسين سنة ومدة ملكه
 منها أربعون سنة .

والآن فلنعد لنذكر شيئاً عن كتب السحر التي تنسب إلى سليمان الحكيم .

كان هناك في القرن الأول للميلاد في عهد الإمبراطور قسباسيان Vespasian كتاب متداول في التعازيم والرقى الخاصة باستحضار الجن والشياطين وكان يعرف هذا الكتاب باسم « سليمان » . وذكر المؤرخ فلافيوس جوزيفوس Flavius Jozephus وكان معاصراً لذلك العهد أن هذا الكتاب كان في حوزة يهودي يدعى العازار . وقد استطاع هذا اليهودي في حضرة الإمبراطور قسباسيان أن يبرئ أشخاصاً مستهم الجن وذلك بأن وضع في أنوفهم حلقات عليها رسوم خاصة وضعها سليمان لهذا الغرض ثم تلى في الوقت ذاته بعض الصيغ التي ذكرها سليمان في هذا الكتاب .

وقد أضيف إلى هذا الكتاب بمضى الزمن الكثير من الصيغ والتعاويذ السحرية ولعل هذا الكتاب هو النواة التي خرج منها كتاب « مفاتيح سليمان » وهو كتاب السحر الذي ذاع صيته في القرون الوسطى وكان يعرف باسم Clavicule de Salomon . وأخذ الكتاب في مختلف العصور يتحدثون عن كتب السحر التي تنسب إلى سليمان في القرن الحادي عشر تحدث الكاتب اليوناني ميخائيل نسلوس Michael Psellus عن

رسالة في الجن وخواص الأحجار وذكر أن مؤلفها هو سليمان الحكيم . وتحدث مؤرخ بيزنطى آخر من أهل القرن الثالث عشر في تاريخه عن الإمبراطور مانويل كومنينوس Manuel Comnenus عن كتاب في السحر لا شك أنه هو كتاب « مفاتيح سليمان » السالف الذكر . وذكر أن هذا الكتاب كان في حوزة هارون إسحق مترجم الإمبراطور وقال إن الذى يقرأ هذا الكتاب يستطيع أن يستحضر كتائب جمّة من الجن والشياطين .

ويظهر أن هذا الكتاب قد انتقل في القرن الثالث عشر من العالم البيزنطى إلى العالم اللاتينى وتذهب الروايات أن البابا هنوريوس الثالث الذى خلف البابا إينوسنت الثالث على الكرسي البابوى عام ١٢١٦ قد أعد نسخة جديدة من هذا الكتاب وقد اتهم لذلك بالشعوذة والسحر كما اتهم بذلك أيضاً البابوات ليو الثالث وجون الثانى والعشرين وسلفستر الثانى .

. وكان الراهب المشهور روجر باكون الذى توفى عام ١٢٩٤ على دراية بكتب السحر التى تنسب إلى سليمان الحكيم ولكنه كان يرى عدم صحة نسبها إلى سليمان لما عرف عن هذا النبى من الفضل والحكمة . وفى حوالى عام ١٣٥٠ أمر البابا إينوسنت السادس بحرق كتاب كبير فى السحر يسمى « كتاب

سليمان » ويزكرون أن هذا الكتاب كان مائثاً بالقواعد والتعازيم الخاصة باستحضار الجن .

ويستخلص من هذه الإشارات المختلفة التي أوردها المؤرخون المسيحيون في مختلف العصور أن كتاب السحر الذي ينسب إلى سليمان كان منتشرًا في مكتبات أوروبا ولعل هذا الكتاب كان خليطاً من طقوس وشعائر سحرية من أصل يهودي بعضها ينسب إلى سليمان والبعض الآخر يرجع إلى عهود أخرى غير عهد سليمان ومنها تعازيم وصيغ سحرية لاستحضار الجن قديمة العهد جداً كانت منقوشة باللغة المسمارية على ألواح نينوى .

وما إن قاربت العصور الوسطى على الانتهاء حتى كانت هناك عدة نسخ مخطوطة من هذا الكتاب موزعة في جميع أنحاء أوروبا . وقد اهتم علماء عصر النهضة بهذا الكتاب اهتماماً كبيراً وظهرت منه أول نسخة مطبوعة في عام ١٦٢٩ ثم أعيد طبع هذا الكتاب بعد ذلك مراراً .

على أن هذه النسخ المطبوعة لم يكن لها أية قيمة من الناحية العملية التطبيقية لأن التقاليد جرت على أن الساحر الذي يحترم نفسه وفنه يجب أن يكون لديه نسخة مخطوطة من كتاب سليمان وأن مراعاة هذا الشرط خير ضمان لنجاح عملية استحضار الجن والشياطين .

وقد ذكر كاتب مقدمة هذا الكتاب أن سليمان قد عهد بهذا الكتاب وهو « مفاتيح سليمان » إلى ولده رجبم وأنه دارت بين سليمان وولده هذا الحوار :

« تذكر يا ولدى رجبم أنك أعز الأشياء عندي في هذا العالم وأن خالق المخلوقات جميعاً قد جمع في شخصي كل حكمة » .

فيجيبه رجبم : « وما هو سبيلي حتى أكون في ذلك مثل أبي » .

فيقول سليمان : « إن ملاك الرب قد أوحى إلى بذلك في المنام فقد ذكرت الاسم المقدس « يهوه » (الله) وسألته أن يهبني وهائل الحكمة فأراني إياها ملاك الرب في المنام وقال لي أخفي سر الأسرار على أحسن ما يكون الإخفاء لأنه سيأتي اليوم الذي ستتلاشى فيه العلوم الكلية وتختفي تماماً وتصبح باطلا من الأباطيل واعلم أن يومك بات قريباً ؛ وعند ذلك استيقظت من النوم كرجل مخمور أرتعد من الخوف وأخذت أفكر فيما عسى أن أصنعه في هذا الأمر » .

ثم أوصى الملك سليمان ولده رجبم أن يدفن معه هذا الكتاب في قبره . وقد تم كل شيء كما أمر سليمان وظل هذا الكتاب مخبوءاً زمناً طويلاً إلى أن عثر عليه في قبر سليمان

بعض فلاسفة بابل من صحابة سليمان . وقد وجدوا هذا الكتاب محفوظاً في صندوق عاجي فأخذوه ولكن لم يستطع أحد منهم قراءته أو فهم ما جاء به وذلك لغموض ألفاظ هذا العلم الخفى . ثم تذكر المقدمة بعد ذلك أن فيلسوفاً من هؤلاء الفلاسفة ويدعى تزجرك Tozgrek كان جالساً ذات يوم في غرفته يتأمل هذا الكتاب ويفكر فيه إذا بملك الرب يتجلى له ويقول مخاطباً إياه « انظر واقرأ هذا الكتاب الصغير فإن الألفاظ التى تبدو خافية عليك سوف يسهل عليك توضيحها » وعند ذلك ابتهج تزجرك غاية الابتهاج ونظر فى هذا الكتاب فاستطاع أن يقرأ ما فيه بعد أن أعيا الجميع قراءته وعند ذلك ابتهل إلى الله أن لا يقع هذا الكتاب فى حوزة جاهل ثم قال : « إني أستمحلف كل من يقع فى يديه هذا الكتاب بأعضاء بدنه وبكل ما يرغب فيه ويرمى إلى عمله أن لا يترجم هذا الكتاب ولا أن يفسره ولا أن يظهره لأحد اللهم إلا لأعظم الناس علماً وحكمة » .

ونجد بعد هذه المقدمة اللطيفة فصولاً خاصة بالأعمال التمهيدية المتصلة باستحضار الجن والشياطين . وتشير هذه الفصول إلى أن الشياطين تنقسم قسمين : خيرة وهى التى تخدم الإنسان وأخرى شريرة يجب الابتعاد عنها .

ومن الملاحظ أن الفقه الكاثوليكي لا يأخذ بهذه التفرقة على أساس أن الشياطين جميعاً من الأشرار الملعونين .

ثم يعدد الكتاب بعد ذلك الصفات اللازم توافرها في الشخص الذي يقوم باستحضار الجحش والشياطين وما يجب أن تكون عليه الملابس التي يرتديها والنعل الذي يحتديه والقلم الذي يكتب به والمداد أو الدم الذي يستخدمه في الكتابة . وهذه الأدوات كلها ضرورية لا غنى عنها لمن أراد أن يدخل إلى هذا العالم الخفي المحجب بالأسرار :

الفصل الرابع السحر في الإسلام

لا نعرف إلا القليل من أفعال السحر وأخبار السحرة في بلاد العرب قبل ظهور الإسلام في القرن السابع للميلاد . وقد كان المتداول على ألسنة العرب في الجاهلية أن سليمان الحكيم قد خلف وراءه إرثاً هائلاً من الرقى والتعاويد والصيغ السحرية المستعملة في شتى الأغراض وأن أتباع سليمان وصحابته تقاسموا هذا الإرث فيما بينهم واحتفظوا بهذه الأسرار السحرية في صدورهم لا يفضون بها إلا لذراريهم وأقرب المقربين إليهم ، وأن في بلاد العرب نفراً من الذين وصلتهم هذه الأسرار السحرية يعيشون في الواحات البعيدة عن الطرق المسلوكة وهؤلاء هم سحرة العرب . وكان الناس من وقت لآخر ينشدون هؤلاء السحرة لاستشارتهم فيما يعرض لهم من أمور الدنيا ويطلبون عندهم بفضل ما عندهم من رقى وتعاويد وصيغ سحرية .

وكان هؤلاء السحرة يعرفون عادة فيما قبل الإسلام باسم الكهان وكانوا يدعون المعرفة بالغيب . وكان الرأي بين الناس

أن هؤلاء الكهان أذهاناً حادة وطباعاً نارية ولذلك ألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه .

وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن الكهانة كانت أصنافاً منها ما يتلقاه الكهنة من الجن إذ كانت الجن تصعد إلى السماء فيركب بعضهم بعضاً إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه إلى أن يتلقاه من يلقى في أذن الكاهن فيزيد فيه فلما جاء الإسلام ونزل القرآن ، حرست السماء من الشياطين وأرسلت عليهم الشهب فبقى من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » .

والنوع الثاني ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالباً أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد .

والثالث ما يستند إلى ظن وتخمين وحس ، وهذا قد يجعل الله تعالى فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .
والنوع الرابع ما يستند إلى التجربة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك .

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جداً وظهر بين العرب نفر اشتهروا بالكهانة منهم شق بن أنمار بن نزار وسطيح ابن مازن بن غسان وطريفة الكاهنة وزبراء الكاهنة وهؤلاء وغيرهم قصص عجيبة طويلة تبين الخوارق والأعاجيب التي قاموا بها .

وكان هناك غير هؤلاء عدد من السحرة المسلحين بالألفاظ والتعابير السحرية والطلسمات والتأتم والتعاويذ يعيشون في الكهوف والمغاور الكبيرة وكانوا يمارسون أعمالهم السحرية على أساس أنهم صفوة ممتازة يتفوقون على الناس أجمعين .

وكانت تقاليد العرب في الجاهلية شبيهة بتقاليد الأمم السامية الأخرى كالهند والآشوريين والبابليين وكانت وسائلهم السحرية متفقة وما أثر عن هذه الأمم السامية . وقد اجتمع حول الكعبة في الجاهلية عدد من الأصنام بلغ عددها ١٦٠ صنماً تمثل الآلهة المختلفة وأشهرها اللات والعزى وهبل . وكان العرب يلجأون إليها لاستخارتها في أمور دنياهم . وكان لهذه الأصنام سدة أو كهنة من قبيلة قريش يتولون استنطاقها بمختلف الرموز والتعابير والصيغ الغريبة يوجهونها إلى تلك الأصنام .

وجاء الإسلام ونزل القرآن وبه آيات تشير إلى السحر .

وقصة السحر في الإسلام تسير جنباً إلى جنب مع تقدم الحضارة الإسلامية . فقد كان السحر في صدر الإسلام لا يزال على الفطرة ليست له قواعد مرسومة مدروسة إنما كان يتناقله الخلف عن السلف دون أن يتصدى أحد لدراسة هذا الفن السحري الذي كان له أثر واضح على الحياة العربية بوجه عام .

ثم كان عهد الخلفاء الأول في الشام ومصر والأندلس وفيه أخذ المترجمون في نقل كتب اليونان والرومان وغيرهم من الدول المغلوبة على أمرها وأخذ العلماء في دراسة تعاليم أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان ونحسوا التواريخ القديمة وسنوا القوانين ووضعوا قواعد الدين والأخلاق . واشتغل العلماء في مساجد القيروان والقاهرة وقرطبة وبغداد بدراسة الطب والسحر والكيمياء كما درسوا أيضاً السحر اليهودي والكلداني .

وكان موقف المسلمين تجاه السحر قائماً — كما هو الحال في جميع أمور الدنيا والدين — على ما ورد في القرآن . وقد كتب نفر من علماء المسلمين أحسن وأشهر الرسائل في السحر والغيبيات بوجه عام وذلك فيما بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر نذكر من هؤلاء الكندي وأبي معشر جعفر بن محمد البلخي وقستا بن لوقا البعلبكي وفخر الدين الرازي وثابت بن

قرة وجابر بن حيان وغيرهم .

والسحر فى اللغة العربية عبارة عن كل ما لطف مأخذه ونخفى سببه ومنه الساحر ويطلق على الذى يقوم بهذه الأعمال .
والسحر بالفتح هو الغذاء الخفائه واطف مجاريه . والسحر هو الرثة وكل ما تعلق بالخلقوم وهذا أيضاً يرجع إلى معنى الخفاء ومنه قول عائشة رضى الله عنها : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحرى ونجوى . وقوله تعالى : « إنما أنت من المسحورين » يعنى من المخلوقين الذين يطعمون ويشربون .

والسحر فى عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع ، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله قال تعالى : « سحرُوا أعين الناس » حكاية عن موسى وسحرة فرعون أعنى أنهم موتهوا على الناس حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى . وقال تعالى : « ينخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » . وقد يستعمل مقيداً فيما يمدح ويحمد وهو السحر الحلال . قال صلى الله عليه وسلم « إن من البيان لسحرا » لأن صاحبه يوضح الشئ المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه واطف عبارته ويقدر على تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، يسخط تارة فيقول أسوأ ما يمكن ويرضى تارة فيقول أحسن ما يعلم .

روى أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبرقان ابن بدر وعمرو بن الأهتم، فقال الرسول لعمر بن الخطاب عن الزبرقان قال: مطاع في نأديه شديد العارضة مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان هو والله يعلم أني أفضل منه فقال عمرو: إنه ذم المروءة ضيق العطن أحرق الأب لثيم الخال، وإني يا رسول الله صدقت فيهما، أرضاني فقلت أحسن ما علمت وأسخطني فقلت أسوأ ما علمت فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من البيان لسحرا.

واختلف العلماء المسلمون في معنى السحر فقال بعضهم هو تخدع ومخاريق ومعان يفعلها الساحر حتى يخيّل إلى المسحور الشيء أنه بخلاف ما هو به نظير الذي يرى السراب من بعيد فيخيّل إليه أنه ماء ويرى الشيء من بعيد فيثبته بخلاف ما هو على حقيقته، وكراكب السفينة السائرة سيرا حثيثا يخيّل إليه أن ما عاين من الأشجار والجبال سائر معه، قالوا فكذلك المسحور وتلك صفته يحسب بعد الذي وصل إليه من سحر الساحر أن الذي يراه أو يفعله بخلاف الذي هو به على حقيقته.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سحر كان يخيّل إليه أنه يفعل الشيء ولم يفعله. وعن عائشة أيضا قالت سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي من

يهود بنى زريق يقال له لبيد بن الأعصم حتى كان رسول الله
يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله .

والذى يقال إن يهود بنى زريق عقدوا عقد سحر لرسول
الله صلى الله عليه وسلم فجعلوها في بئر ذروان حتى كان رسول
الله ينكر بصره ودله الله على ما صنعوا فأرسل رسول الله إلى
بئر ذروان التي فيها العقد فانتزعها فكان رسول الله يقول سحرتني
يهود بنى زريق . وفي ذلك نزل قول الله تعالى : « قل أعوذ
برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر
النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد » .

والظاهر أن السحر عن طريق عقد العقد وقراءة التعاويذ
عليها كان أمراً فاشياً في زمن الرسول .

وأنكر البعض أن يكون الساحر يقدر بسحره على قلب
شيء عن حقيقته وتسخير شيء من خلق الله إلا نظير الذي
يقدر عليه سائر بنى آدم أو إنشاء شيء من الأجسام سوى
المخاريق والحدع المتخيلة لأبصار الناظرين بخلاف حقائقها .
وقالوا لو كان في وسع السحرة إنشاء الأجسام وقاب لحقائق
الأعيان عما هي به من الهيئات لم يكن بين الحق والباطل فصل
وبلحاز أن تكون جميع المحسوسات مما سحرتة السحرة فقلبت
أعيانها وفي ذلك وصف الله جل وعز سحرة فرعون بقوله :

« فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى » .
 وقد تساءلوا وكيف يفرق الساحر بين المرء وزوجه ، قيل
 إن معنى السحر تخيل الشيء إلى المرء بخلاف ما هو به في
 عينه وحقيقته ، فتفريق الساحر بين المرء وزوجه تخيله بسحره
 إلى كل واحد منهما شخص الآخر على خلاف ما هو به
 حقيقته من حسن وجمال حتى يقبحه عنده فينصرف بوجهه
 ويعرض عنه حتى يحدث الزوج لا مرأته فراقاً فيكون الساحر
 مفزقاً بينهما بإحداثه السبب الذي كان منه فرقة ما بينهما .

والسحر بالمعنى الضيق هو الفتنة أو هو الخيال المحض .
 ويطلق على ذلك في كثير من الأحيان « التخيل » اعتماداً على
 الآية ٦٦ من سورة طه وهي : « قالوا إن هذان لساحران
 يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بطريقتكم
 المثلى » . وربما كان هذا هو ما نسميه الآن « بالتنويم المغناطيسي » .

وقد تحدث ابن خلدون في مقدمته عن علوم السحر
 والطلسمات فقال هي علوم بكيفية استعدادات تقدر النفوس
 البشرية بها على التأثيرات في عالم العناصر إما بغير معين
 أو بمعين من الأمور السماوية والأول هو السحر والثاني هو
 الطلسمات . وكانت هذه العلوم في أهل بابل من السريانيين
 والكلدانيين وفي أهل مصر من القبط وغيرهم .. ثم ظهر في

المشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصفح كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غيرها من التأليف وأكثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لأنها من توابعها لأن إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى إنما يكون بالقوة النفسية لا بالصناعة العلمية فهو من قبيل السحر . ثم جاء مسلمة بن أحمد المجريطي إمام أهل الأندلس في التعاليم والسحريات فليخص جميع تلك الكتب وهذبها وجمع طرقها في كتابه الذي سماه «غاية الحكيم» ولم يكتب أحد في هذا العلم غيره .

ويذكر ابن خلدون أن النفوس البشرية وإن كانت واحدة بالنوع فهي مختلفة بالخواص ، وهي أصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في الصنف الآخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصية تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم السلام عن الله سبحانه وتعالى وما يتبع ذلك من التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية . فأما تأثير الأنبياء فمدد إلهي ، وخاصية ربانية . ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر .

والنفوس الساحرة على مراتب ثلاث فأولها المؤثرة بالهمة فقط من غير آلة ولا معين وهذا هو الذى تسميه الفلاسفة السحر ، والثانى بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول . والثالث تأثير فى القوى المتخيلة يعتمد صاحب هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرف فيها بنوع من التصرف ويلقى فيها أنواعاً من الخيالات والمحاكاة صوراً مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرأى بقوة نفسه المؤثرة فينظر الراؤون كأنها فى الخارج وليس هناك شىء من ذلك كما يحكى عن بعضهم أنه يرى البساتين والأنهار والقصور وليس هناك شىء من ذلك ، ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة .

ثم إن هذه الخاصية تكون فى الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وإنما تخرج إلى الفعل بالرياضة ورياضة السحر كلها إنما تكون بالتوجه إلى الأفلاك والكواكب والعوالم العلوية والشياطين بأنواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذليل فهى لذلك وجهة إلى غير الله والوجهة إلى غير الله كفر ، ولهذا كان السحر كفراً أو الكفر من مواده وأسبابه ولذلك اختلف الفقهاء فى قتل الساحر هل هو لكفره السابق على فعله أو لتصرفه بالإفساد وما ينشأ عنه من الفساد فى الأكوان .

ولما كانت المرتبتان الأوليان من السحر لها حقيقة في الخارج والمرتبة الأخيرة الثالثة لا حقيقة لها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو هو تخيل ، فالقائلون بأن له حقيقة نظروا إلى المرتبتين الأوليين والقائلون بأن لا حقيقة له نظروا إلى المرتبة الثالثة الأخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الأمر بل إنما جاء من قبل اشتباه هذه المراتب .

ووجود السحر لامرية فيه بين العقلاء من أجل التأثير الذي يحدثه . وقد نطق به القرآن في قوله تعالى : « ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله » .

وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عاياه السلام أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتنازعون فيه وبقي من آثار ذلك في البرابي بصعيد مصر شواهد دالة على ذلك .

والفرق بين السحر والطلسمات هو أن السحر لا يحتاج الساحر فيه إلى معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الأعداد ونحوها الموجدات وأوضاع الفلك

المؤثرة في العناصر كما يقول المنجمون . ويقولون السحر اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية السماوية بالطبائع السفلية . والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك يستعين صاحبه في غالب الأمر بالنجامة . والساحر عندهم غير مكتسب لسحره بل هو مفطور عندهم على تلك الجبلة المختصة بذلك النوع من التأثير . والفرق عندهم بين المعجزة والسحر أن المعجزة قوة إلهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو مؤيد بروح الله على فعله والساحر إنما يفعل ذلك من عنده وبقوته النفسانية وبإمداد الشياطين في بعض الأحوال .

وقد يوجد لبعض المتصوفة وأصحاب الكرامات تأثير أيضاً في أحوال العالم ليس معدوداً من جنس السحر وإنما هو بالإمداد الإلهي لأن طريقتهم ونحلتهم من آثار النبوة وتوابعها ولهم في المدد الإلهي حظ على قدر حالهم وإيمانهم وتمسكهم بكلمة الله . وإذا اقتدر أحد منهم على أفعال الشر فلا يأتيها لأنه مقيد فيما يأتيه ويذره للأمر الإلهي فما لا يقع لهم فيه الإذن لا يأتونه بوجه ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله .

ولما كانت المعجزة بإمداد روح الله والقوى الإلهية فلذلك

لا يعارضها شيء من السحر مثل شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تلقفت ما كانوا يأفكون وذهب سحرهم واضح حمل كأن لم يكن وكذلك لما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرؤها على عقدة من العقد التي سحر فيها إلا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله وذكره .

وذكر المؤرخون أن راية كسرى كان فيها الوق المثنى العددى منسوجاً بالذهب في أوضاع فلكية رصدت لذلك الوق ووجدت الراية يوم قتل رستم بالقادسية واقعة على الأرض بعد انهزام أهل فارس وشتاتهم وهو فيما تزعم أهل الطلسمات والأوقاف مخصوص بالغلب في الحروب وأن الراية التي يكون فيها أو معها لا تهزم أصلاً إلا أن هذه عارضها المدد الإلهي من إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا يعملون .

ولم تفرق الشريعة بين السحر والطلسمات وجعلته كله باباً واحداً محظوراً لأن الأفعال إنما أباح لنا الشارع منها ما يهملنا في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو في معاشنا الذي فيه صلاح دنيانا وما لا يهملنا في شيء منهما فإن كان فيه ضرر

أو نوع ضرر كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع ويحقق به
الطلسمات لأن أثرهما واحد وكالنجامة التي فيها نوع ضرر
باعتماد التأثير فتفسد العقيدة الإيمانية برد الأمور إلى غير
الله فيكون حيثئذ ذلك العقل محظوراً على نسبته في الضرر
فلا أقل من أن تركها قربة إلى الله فإن من حسن إسلام المرء
تركه مالا يعنيه فجعلت الشريعة باب السحر والطلسمات
والشعوذة باباً واحداً لما فيها من الضرر وخصته بالحظر
والتحريم .

وقد تحدث بعض كتاب المسلمين عن أقسام السحر
فقالوا إن السحر على أقسام الأول سحر الكلدانيين والسريانيين
الذين كانوا في قديم الدهر وهم قوم يعبدون الكواكب ويزعمون
أنها هي المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة
والنحوسة ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية
بالقوى الأرضية وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام
مبطلا لمقاتلهم وراداً عليهم في مذاهبهم .

والنوع الثاني سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية
ويستدلون على ذلك بأدلة . والدليل الأول أن الجذع الذي يستطيع
الإنسان أن يمشى عليه لو كان موضوعاً على الأرض لا يمكنه
المشى عليه إذا كان الجسر على هاوية تحته وما ذاك إلا لأن

تخيل السقوط متى قوى أوجبه . والثاني قولهم إن الأطباء قد اجتمعت على نهى المعروف عن النظر إلى الأشياء الحمر والمصروع عن النظر إلى الأشياء القوية اللمعان والدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . والثالث أنه قد حكى عن ابن سينا في كتابه الشفاء عن أرسطو في طبائع الحيوان أن الدجاجة إذا تشبهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت على ساقها مثل الشيء النابت على ساق الديك . ثم قال صاحب الشفاء وهذا يدل على أن الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية .

والدليل الرابع هو قولهم إن الأمم قد أجمعت على أن الدعاء مظنة الإجابة وأجمعوا على أن الدعاء اللسانى الخالى عن الطلب النفسانى قليل العمل عديم الأثر . ويذكرون خامساً أن المبادئ القريبة للأفعال الحيوانية ليست إلا التصورات النفسانية لأن القوة المحركة المغروزة في العضلات صالحة للفعل وتركه أو ضده ولن يترجح أحد الطرفين على الآخر إلا لمرجح وما ذاك إلا تصور كون الفعل جميلاً أو لذيذاً أو تصور كونه قبيحاً أو مؤلماً فتلك التصورات هي المبادئ لصيرورة القوى العضلية مبادئ للفعل لوجود الأفعال بعد أن كانت كذلك بالقوة . وإذا كانت هذه التصورات هي المبادئ لمبادئ هذه الأفعال .

فأى استبعاد فى كونها مبادئ للأفعال نفسها وإلغاء الوسطة
عن درجة الاعتبار .

والدليل السادس الذى يسوقونه للتدليل على سحر أصحاب
الأوهام هو أن التجربة والعيان شاهدان بأن هذه التصورات
مبادئ قريبة لحدوث الكيفيات فى الأبدان فإن الغضب تشد
سخونة مزاجه حتى إنه يفيد سخونة قوية ، إذ يحكى أن بعض
الملوك قد عرض له فالج فأعيا الأطباء مزاولة علاجه فدخل
عليه بعض الخذاق منهم على حين غفلة منه وشافهه بالشتم
والقدح فى العرض فاشتد غضب الملك وقفز من مرقده قفزة
اضطرارية لما ناله من شدة ذلك الكلام فزالت تلك العلة المزمنة
والمرضة المهلكة . فإذا جازكون التصورات مبادئ لحدوث
الحوادث فى البدن . فأى استبعاد من كونها مبادئ لحدوث
الحوادث خارج البدن .

أما الدليل السابع فهو أن الإصابة بالعين أمر قد اتفق عليه
العقلاء وذلك أيضاً يحقق إمكان سحر أصحاب الأوهام والنفوس
القوية .

وذكروا أن النفوس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية
جداً فتستغنى فى هذه الأفعال عن الاستعانة بالآلات والأدوات
وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانة بهذه الآلات . وسبب

ذلك أن النفس إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات كانت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم أما إذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه اللذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تصرف البتة إلا في هذا البدن، فإن أراد هذا الإنسان صيرورتها بحيث يتعدى تأثير من بدنها إلى بدن آخر اتخذ تمثال ذلك الغير ووصفه عند الحس واشتغل الحس به فيتبعه الخيال عليه وأقبلت النفوس الناطقة عليه فقويت التأثيرات النفسانية والتصرفات الروحانية ولذلك اجمعت الأمم على أنه لا بد لمزاولة هذه الأعمال من الانقطاع عن المألوفات والمشتبهات وتقليل الغذاء والانقطاع عن مخالطة الخلق وكلما كانت هذه الأمور أتم كان ذلك التأثير أقوى .

ويتبين من هذا أن مزاولة هذه الأعمال لا تتأتى إلا مع التجرد عن الاحوال الجسمانية وترك مخالطة الخلق والإقبال بالكلية على عالم الصفاء والأرواح .

أما الرقي فإن كانت معلومة فالأمر فيها ظاهر لأن الغرض منها أن حس البصر كما شغلناه بالأمور المناسبة لذلك الغرض فكذلك حس السمع نشغله أيضاً بالأمور المناسبة لذلك الغرض . فإن الحواس متى تطابقت على التوجه إلى الغرض الواحد كان

توجه النفس إليه حيثئذ أقوى وأما إن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة فإن الإنسان إذا اعتقد أن هذه الكلمات إنما تقرأ للاستعانة بشيء من الأمور الروحانية ولا يدري كيفية تلك الاستعانة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدهشة ويحصل للنفس في أثناء ذلك انقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل فيقوى التأثير النفساني فيحصل الغرض المراد. وكذلك الحال عندما يستعين الساحر بالبخور والنيران .

والنوع الثالث من السحر هو الاستعانة بالأرواح الأرضية . وقد أنكر بعض المتأخرين من الفلاسفة وكذلك المعتزلة القول بالجن ولكن أكابر الفلاسفة لم ينكروا ذلك وإنما أطلقوا على الجن اسم الأرواح الأرضية وهذه مختلفة في ذاتها منها خيرة ومنها شريرة فالخيرة هم مؤمنو الجن والشريرة هم كفار الجن وشياطينهم .

ثم قال هؤلاء الفلاسفة إن هذه الأرواح بجواهر قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا حالة في التحيز وهي قادرة عامة مدركة للجزئيات واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية إلا أن القوة الحاصلة للنفوس الناطقة بسبب اتصالها بهذه الأرواح الأرضية أضعف من القوة الحاصلة لها بسبب

اتصالها بتلك الأرواح السماوية . أما أن الاتصال أسهل فلأن المناسبة بين نفوسنا وبين هذه الأرواح الأرضية أسهل ولأن المشابهة والمشاكلة بينهما أتم وأشد من المشاكاة بين نفوسنا وبين الأرواح السماوية . أما أن القوة بسبب الاتصال بالأرواح السماوية أقوى فلأن الأرواح السماوية هي بالنسبة للأرواح الأرضية كالشمس بالنسبة إلى الشعلة والبحر بالنسبة إلى القطرة والسلطان بالنسبة إلى الرعية . وهذه الأشياء وإن لم يرقم على وجودها برهان قاطع قاهر فلا أقل من الاحتمال والإمكان . ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرق والدخن (البخور) والتجريد وهذا ما يسمى بالعزائم وعمل تسخير الجن .

والنوع الرابع من السحر هو التخيلات والأخذ بالعيون وهذا النوع مبنى على مقدمات الأولى أن أغلاط البصر كثيرة فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشاطئ رأى السفينة واقفة والشاطئ متحركاً وذلك يدل على أن الساكن يرى متحركاً والمتحرك يرى ساكناً . وقطرة الماء النازلة ترى خطاً مستقيماً والذبالة التي تدار بسرعة ترى دائرة وهكذا . والجسم الصغير يرى في الضباب كبيراً وكبخار الأرض الذي يريك قرص الشمس

عند طلوعها عظيماً فإذا فارقت وارتفعت عنه صغرت . وهذه الأشياء قد هدت العقول إلى أن القوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه .

والمقدمة الثانية أن القوة الباصرة إنما تقف على المحسوسات وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان له مقدار ما فأما إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً ثم أدركت بعده محسوساً آخر وهكذا فإنه يختلط البعض ببعض ولا يتميز بعض المحسوسات عن البعض . وهم يقولون في إثبات ذلك إن الرحي إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة ثم استدارت فإن الحس يرى لوناً واحداً كأنه مركب من كل تلك الألوان .

والمقدمة الثالثة أن النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحس شيء آخر ولا يشعر الحس به البته فإن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان آخر ويتكلم معه فلا يعرفه ولا يفهم كلامه لأن قلبه مشغول بشيء آخر وكذا الناظر في المرأة فإنه ربما قصد أن يرى قذاة في عينه فيراها ولا يرى ما هو أكبر منها إن كان بوجهه أثر وبجبهته أو بسائر أعضائه التي تقابل المرأة .

وإنه يسهل علينا مع إدراك هذه المقدمات أن نتصور كفية هذا النوع من السحر وذلك لأن الساحر الحاذق يظهر

عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استغرقهم الشغل بذلك الشيء والتحديث نحوه عمل شيئاً آخر بسرعة شديدة فيبقى ذلك العمل خفياً لتفاوت الشئين أحدهما اشتغالهم بالأمر الأول والثاني سرعة الإتيان بهذا العمل الثاني وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً ولو أنه سكوت ولم يتكلم بما يصرف الحواطر إلى ضد ما يريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير ما يريد إخراجهم لفطن الناظرون لكل ما يفعله، فهذا هو المراد من قولهم إن المشعبد يأخذ بالعيون لأنه في الحقيقة يأخذ العيون إلى غير الجهة التي يحتال فيها . وكلما كان أخذ العيون والحواطر وجذبه لها إلى غير مقصوده أقوى كان أحقق في عمله، وكلما كانت الأحوال التي تفيد حس البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد كان هذا العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبد في موضع مضى جداً فإن الضوء الشديد يفيد البصر كلالاً واختلالاً وكذا الظلمة الشديدة وكذلك الألوان المشرقة القوية تفيد البصر كلالاً واختلالاً والألوان المظلمة قلما تقف القوة الباصرة على أحوالها .

والنوع الخامس من السحر الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة وعلى ضروب الخيلاء أخرى مثل فارسين يقتتلان فيقتل أحدهما

الآخر وكفارس على فرس وفي يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب البوق من غير أن يمسه أحد ، ونحو ذلك من الأعمال الهندسية الدقيقة . على أن هذه الأعمال لا يمكن عدها في الحقيقة من باب السحر ولكن لما كان إدراك سر صنعها عسيراً ولا يتيسر إلا لبعض الناس لذلك عدها أهل الظاهر من باب السحر .

ومن هذا الباب ما صنعه أرجعيانوس الموسيقار في هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إياه ذلك أنه اتفق له أن كان مجتازاً بفلاة من الأرض فوجد فيها فرخاً من فراخ البراصل . والبرصلة طائر عطوف وكان يصفر صفيراً حزيناً بخلاف سائر البراصل وكانت البراصل تجيئه بلطائف الزيتون فتطرحها عنده فيأكل بعضها عند حاجته ويفضل بعضها عن حاجته فوقف هذا الموسيقار هناك وتأمل حال هذا الفرخ وعلم أن في صفيره المخالف لصفير البراصل ضرباً من التوجع والاستعطاف حتى رقت له الطيور . وجاءته بما يأكله فتلطف في عمل آلة تشبه الصفارة إذا استقبل الريح بها أدت ذلك الصفير ولم يزل يجرب ذلك حتى وثق بها وجاءته البراصل بالزيتون كما كانت تجيء إلى ذلك الفرخ لأنها تظن أن هناك فرخاً من جنسها . فلما صح له ما أراد أظهر النساء وعمد إلى هيكل أورشليم وسأل

عن الليلة التي دفن فيها أسطر نحس الناسك القيم بعمارة ذلك الهيكل فأخبر أنه دفن في أول ليلة من آب فاتخذ صورة من زجاج مجوف على هيئة البرصلة ونصبها فوق ذلك الهيكل وجعل فوق تلك الصورة قبة وأمرهم بفتحها في أول آب وكان يظهر صوت البرصلة بسبب نفوذ الريح في تلك الصورة وكانت البراصل تجيء بالزيتون حتى كانت تلك القبة تمتلئ كل يوم من ذلك الزيتون والناس اعتقدوا أنه من كرامات ذلك المدفون . والنوع السادس من السحر الاستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل في الطعام بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل أو أن يستخدم الأدخنة المسكرة أو المغيبة للوعى .

أما النوع السابع والأخير من السحر فهو تعليق القلب وهو أن يدعى الساحر أنه قد عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطيعونه وينقادون له في أكثر الأمور فإذا اتفق أن كان السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والخوف وإذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر من أن يفعل ما يشاء . ولتعلق القلب أثر عظيم في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار . وقد اتفق المعتزلة على إنكار هذه الأنواع إلا النوع المنسوب إلى التخيل والمنسوب إلى إطعام بعض الأدوية المبلدة

أما الأقسام الخمسة الأولى فقد أنكروها ولعلهم كفروا من قال بها .

أما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر على أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا إن الله تعالى هو الخالق لهذه الأشياء عندما يقرأ الساحر رقى مخصوصة وكلمات معينة وذلك استناداً على قوله تعالى : « وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله » .

وقد اتفق المحققون على أن العلم بالسحر غير قبيح ولا محذور لأن العلم لذاته شريف وأيضاً اعموم قواه تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجز . على أن اجتنابه أقرب إلى السلامة كتعلم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجر إلى الغواية .

أما الساحر هل يكفر أم لا فلا نزاع بين الفقهاء في أن من اعتقد أن الكواكب هي المدبرة لهذا العالم وهي الخالقة لما فيه من الحوادث والخيرات والشرور فإنه يكون كافراً على الإطلاق وهذا هو النوع الأول من السحر .

أما النوع الثاني وهو أن يعتقد أنه قد يبلغ روح الإنسان في التصفية والقوة إلى حيث يقدر على إيجاد الأجسام وإعدامها وتغيير البنية والشكل فالأظهر لإجماع الأمة أيضاً على تكفيره

وأما أن يعتقد الساحر أنه قد يبلغ في التصفية . وقراءة الرقى
وتدخين بعض الأدوية إلى حيث يخلق الله تعالى عقيب أفعاله
على سبيل العادة الأجسام والحياة والعقل وتغيير البنية والشكل
فالمعتزلة اتفقوا على تكفير من يجوز ذلك . أما سائر أنواع
السحر فلا شك أنها ليست بكفر .

وحكم من كفر بالسحر حكم المرتد وإذا سحر إنساناً
فمات فإن قال إني سحرته وسحري يقتل غالباً وجب عليه القود .
وإن قال سحرته وسحري قد يقتل وقد لا يقتل فهو شبه عمد
وإن قال سحرت غيره فوافق اسمه فهو خطأ نجب الدية مخففة
في ماله وهذا هو مذهب الشافعي .

وعن أبي حنيفة أنه قال يقتل الساحر إذا علم أنه ساحر
ولا يستتاب ولا يقبل قوله إني أترك السحر وأتوب منه . فإذا
أقر أنه ساحر فقد حل دمه وإن شهد شاهدان على أنه ساحر
أو وصفوه بصفة يعلم أنه ساحر قتل ولا يستتاب وإن أقر بأنه
كان يسحر ولكنه ترك السحر منذ زمان قبل منه ولم يقتل .
أما سائر أنواع السحر وكذلك من يتمشى بالتضريب
والنخيمة ويحتال في إيقاع الفرقة بعد الوصلة ويوهم أن ذلك
بكتابة يكتبها من الاسم الأعظم فكل ذلك ليس بكفر وكذلك
القول في دفن الأشياء القذرة في دور الناس وإيهام أن الجن

يفعلون ذلك وكذلك من يدس الأطعمة المبلدة فإن شيئاً من ذلك لا يبلغ حد الكفر ولا يوجب القتل .

هذا هو رأى المسلمين فى السحر وأنواعه المختلفة والملاحظ أن علماء الإفرنج الذين كتبوا فى السحر لم يصلوا إلى هذه الدقة فى ذكر أنواع السحر إنما اكتفوا بذكر الأنواع التى تقوم على الرقى والتعاويذ أو التى تعتمد على براعة الساحر وحييلته .

الفصل الخامس

الرقى والتعاويذ

كان الاعتقاد فى العصور الوسطى أن السحرة يجتمعون من وقت لآخر فى جهات مختلفة من القارة الأوروبية فأحياناً يجتمعون فى أطراف السهول والوديان الفسيحة وأحياناً فى داخل الأحراش الموحشة وتارة أخرى فوق قمم الجبال العالية وخاصة فوق جبال هرتز فى شمال ألمانيا . وهم يستحضرون الجن والشياطين لمشاركتهم أعمالهم والأعيبهم فى هذه الاجتماعات الغريبة .

وجرت العادة أن يتخذ السحرة أهبتهم لحضور هذه الاجتماعات وهم يستعدون لها استعداداً ضخماً حتى يضمن كل واحد منهم التفوق على الآخرين فيما يقوم به من خوارق وأعاجيب . ونجد فى كتب السحر التى ترجع إلى العصور الوسطى رسوماً كثيرة تمثل السحرة وهم يستعيدون لهذه الاجتماعات فإذا ما حان حينها ذهبوا إليها بعضهم يمتطى عصي المكانس وأغلب هؤلاء من الساحرات والبعض الآخر يفكر فى اتخاذ صورة حيوانية أو شيطانية أو غير ذلك من الصور والأشكال الغريبة .

وكان الاجتماع يتم عادة في جنح الظلام ولم تكده رسوم وشعائر خاصة به بل كان كل ساحر أو ساحرة له مطلق الحرية في التصرف حسبما تمليه عليه نزعاته وأهوائه . وكان الشيطان نفسه يرأس هذه الاجتماعات متخذاً صورة غراب أو قطة سوداء أو كلب أو قرد . وهو يجلس على عرشه يتقبل فروض الولاء والطاعة من السحرة الذين يحضرون هذه الاجتماعات . ويذكرون أن الشيطان كان يقيم وليمة للحاضرين وكان كل ساحر يجلس إلى المائدة وإلى جانبه شيطان من الشياطين ولم تكن اللحوم التي تقدم للحاضرين سوى الجيف وأجساد الذين شنقوا وقلوب الأطفال الذين لم يعمدوا وغير ذلك من لحوم الحيوانات القذرة التي لم يتعود الإنسان على أكلها . وبعد الانتهاء من تناول الطعام يأخذ المجتمعون في الرقص والقيام بكل عمل عجيب غريب مما يحير العقول والألباب .

ولم يكن هم السحرة وعملهم مقصوداً على الذهاب إلى مجامع السحرة واستحضار الجن والشياطين وأرواح الموتى بل إن بعض السحرة كان يأبى القيام بمثل هذه الأعمال الخبيثة المحرمة وينصرف إلى أعمال أخرى لا تقل خطورة عن أعمال السحرة في مجامعهم وهي البرق والتعاويد . ويمكن أن نقول إن هذه الرقى والتعاويد كانت المبرر الأساسي لوجود هؤلاء السحرة

في نظر الكثيرين من الناس .

ويمكن أن نقسم هذه الرقى والتعاويذ إلى قسمين : ضارة
ونافعة وهذه التفرقة تمكننا أن ندرك بوضوح ما يمكن أن نسميه
بالحياة المزدوجة للسحرة . فقد ننظر إلى الساحر نظرة ملؤها
الخوف والرغبة بسبب المضار والمصاعب التي يستطيع إلحاقها
بالأشخاص والأسر الوادعة المطمئنة بواسطة تعاويذه وأعماله
الحيثة كما ننظر إليه أحياناً أخرى نظرة توسل واستعطاف
ليخلصنا من المصاعب والشرور التي حاقت بنا أو ليكون
وسيلتنا إلى الغايات المحببة التي نبغى الوصول إليها .

والساحر اللبق يمكنه في الحالتين أن يستغل ضعف الإنسان
وقلة حيلته فيبتز منه الأموال نظير القيام بتعاويذه وأعماله السحرية .
ويدعى السحرة أيضاً أنهم يستطيعون القضاء على الطوائع والأمراض
التي تحل بجماعة من الجماعات أو بلد من البلاد نظير أجر
معلوم . ويعمل الساحر في بعض الأحيان على تخليص
الشخص من سحر حل به نتيجة عمل ساحر آخر وفي تلك
الحالة ينشب نضال عنيف بين هذين الساحرين ويقع غرم
ذلك كله على الشخص التعس الذي حل به سحر الساحرين .
وكان الاعتقاد في العصور الوسطى أن الساحر يستطيع
إيقاف السفينة وهي تشق عباب الماء أو أن يحول دون

دوران طاحونة الهواء على الرغم من هبوب الرياح . وكانت السحرة تستطيع أيضاً تجفيف اللبن في ضروع البقر وإيقاف النبات عن النمو وإحالة الخبز الأبيض إلى خبز أسود وتجميد الحمر في قنانيها وإثارة الفتن والأحتماد بين الأهل والأصدقاء وخلق الطواعين وإثارة العواصف والأنواء .

وكانت السحرة تقوم بهذه الأعمال وأمثالها إذا طاب منها ذلك وهى فى الوقت ذاته تستطيع لإبراء المريض وإخماد النيران وإيقاف النزيف وغير ذلك من الأعمال التى أكسبت السحرة شهرة فائقة .

وكانت هذه الرقى والتعاويد تتكيف فى العادة بالبيئة التى تظهر فيها فى الدول التى تطل على البحار . مثل دول شمال أوربا وخاصة بلاد إسكندنافيا كانت الرقى والتعاويد تتصل عادة إما بإثارة الزوابع والعواصف فى عرض البحار وإما تهدئة الأمواج أو لإيقاف السفينة وهى تشق عباب الماء ونحو ذلك من الأعمال التى تتصل بالبحر وبالسفر فى البحار . وتتصل الرقى والتعاويد فى البلاد الزراعية بأعمال أخرى مثل تجفيف اللبن فى ضروع البقر أو إيقاف النبات عن النمو ونحو ذلك . وقد امتلأت كتب السحر فى العصور الوسطى بالوسوم التى تبين أعمال السحرة وبمختلف الرقى والتعاويد . فنجد فى أحد

هذه الرسوم اثنين من الملاحين واقفين على سطح سفينتهما وأمامهما ساحر واقف على صخرة بارزة من الماء يساومهما على حبل في يده به ثلاث عقد . وقد عقدت الرياح في هذه العقد الثلاث . فالشخص الذى يكون فى حوزته هذا الحبل المعقود إذا ما حل العقدة الأولى حصل على رياح جنوبية غربية علية ، وإذا ما حل الثانية حصل على رياح شمالية شديدة ، أما إذا حل العقدة الثالثة فإن عاصفة هوجاء تهب من جميع النواحي .

ونجد فى صورة أخرى رسم ساحرتين تعملان على استئزال المطر وذلك بتعريض ديك فوق مرجل ملتهب .

وكان السحرة يحصلون على مثل هذه النتائج بوسائل أخرى عجيبة مثل رسم بعض الرسوم والأشكال الهندسية أو الكروكية أو حبس ضفدع أو عنكبوت فى صندوق أو قراءة بعض الصيغ السحرية . وكان كتاب « مفاتيح سليمان » يحتوى على مجموعة من الرسوم السحرية المختلفة الأشكال والأحجام والرموز وكان من بينها رسم سحرى عبارة عن دائرة بداخلها بعض المثلثات المتداخل بعضها فى بعض على نحو خاص وحولها الفقرة السابعة من المزمور الثامن عشر ونصها « فارتجت الأرض وارتعشت أسس الجبال ارتعدت وارتجت لأنه غضب » . وكان هذا الرمز السحرى خاصاً بإثارة الزلازل .

وقد اشتهر في العصور الوسطى المتقدمة عمل سحري يعرف باسم « يد الجلالة » Hand of Glory وقد وصفت بغض كتب السحر هذه التعويذة الضارة بشيء من التفصيل وكيفية تحضيرها وكانت هذه التعويذة تستخدم لإضاعة وعي كل شخص يقع بصره عليها وتجعله عديم القدرة على التحرك بحيث يصبح في عا د الأنموات . ويدكرون في تحضيرها الوصفة التالية :

« خذ اليد اليمنى أو اليد اليسرى لمجرم يتدلى من إحدى المشانق المقامة على الطريق العام . ثم لف هذه اليد في قطعة من غطاء نعش مع الشد عليها جيداً أثناء اللف وضعها بعد ذلك في قدر خزفي به خليط من سلفات النحاس ونترات البوتاسا والملح وعرق الذهب ومادة أخرى لا نعرف كنهها تسمى « زيمات » Zimat بعد طحنها معاً طحناً جيداً . واترك اليد في هذا القدر مدة أربعة عشر يوماً ثم أخرجها من القدر وعرضها لأشعة الشمس طوال أيام الشعري (بين ٣ يولية و ١٥ أغسطس) إلى أن تجف تماماً . وإذا لم تكن أشعة الشمس من القوة بحيث تكفي لتجفيفها فضعها في فرن وقوده السرخس والفرفحين (نوعان من النبات) . ثم اصنع بعد ذلك شمعة من دهن مجرم مشنوق مخلوط بالشمع الخام والسمن وروث الخيل . ثم استخدم يد الجلالة كشمعدان تثبت فيه

الشمعة عندما تقاد ومن ثم فإن كل من يتعرض لهذه الوسيلة السحرية المؤذية يفقد وعيه ويصبح عديم الحركة . وقد عمد اللصوص في تلك العصور إلى استخدام هذه الوسيلة السحرية في السرقة لذلك كان من الممكن إفساد تأثيرها عن طريق مسح عتبة البيت أو المواضع الأخرى التي قد يلج منها اللصوص إلى داخل البيت بدهان مركب من مرارة قطرة سوداء ودهن دجاجة بيضاء ودم بومة ناعية ، ويجب أن يركب هذا الدهان إبان أيام الشعري .

وكان هناك أيضاً ما يعرف باسم « الشمعة المسحورة » وهي تمكن الشخص من الكشف عن الكنوز المدفونة في باطن الأرض . وهي عبارة عن شمعة كبيرة مصنوعة من شحم آدمي مثبتة في قطعة من خشب البندق على هيئة حدوة الفرس . وعند ما تضاء هذه الشمعة في مكان ما للبحث عما قد يكون به من كنوز مدفونة . فإنه يتناثر منها شرر لامع مع صوت قرقرة عالية كدليل على وجود الكنز في ذلك المكان . وكلما اقتربت من مكان الكنز تزايد شرر الشمعة إلى أن تنطفئ عندما تصبح فوق الكنز .

وإذا ما أرادت ساحرة أن تلحق الضرر بفلاح ما فإنها تجفف اللبن في ضروع أبقاره فلا يصبح أمام هذا الفلاح

التعس من حيلة سوى الذهاب إلى الساحرة يلتمس منها رفع هذا البلاء عنه بعد أن يدفع لها الأجر المتفق عليه . وكانوا يذكرون أنه كان في استطاعة مثل هذا الفلاح أن يرفع عنه هذا الضرر إذا أخذ بعض لبن هذه البقرة التي جف ضرعها وغلاه في قدر ثم يأخذ عصاً ويضرب اللبن به وهو في القدر فإن ذلك يحدث في جسم الساحرة ضربات لا تقوى على احتمالها الأمر الذي يضطرها إلى رفع تعويذتها الساحرة .

وكانت السحرة في بعض الأحيان تحيل لبن الأبقار إلى لبن أزرق اللون ومن عجائب السحر أن هذا اللبن المسحور يكون دائماً أغزر من اللبن الطيب الأبيض اللون .

وإذا ما شح اللبن في قرية من القرى فإن الساحرة الماهرة كان في استطاعتها تفجير هذا اللبن من أشياء أخرى لاصلة بينها وبين اللبن . وكانت الطريقة الشائعة لذلك هي أن تأخذ الساحرة باطة ثم تضرب بها أي عمود خشبي من الأعمدة التي ترتكز عليها شرفات المنازل فيتفجر اللبن من يد الباطة ويصير جمعه في الأوعية والأواني .

وكان بعض السحرة يقومون برقى وتعاويد لا تفيد أحداً غيرهم فهي من قبيل الأعمال السحرية التي يتفوقون بها على غيرهم من بنى البشر نذكر من بينهم الساحر المشهور هوللر

Holler من أهل بلاد البلطيق فقد كان في مقبور هذا الساحر أن يسير فوق سطح البحر على لوح من الخشب، على أن الأغرب من ذلك كله الرقى والتعاويد التي تجعل الساحر غير منظور وبذلك يندس في المجتمعات ويدخل البيوت ويطلع على الأسرار دون أن يراه أحد .

وجاء في كتب السحر الأسود وصفات كثيرة بها يصبح الشخص غير منظور أشهرها أن يحمل الشخص تحت زراعته الأيمن قلب وطواط ودجاجة سوداء أو ضفدع . وكانت هناك وسيلة أخرى أسهل من هذه وهي أن يلبس الشخص خاتماً مصنوعاً من الزئبق الثابت وعليه حجر صغير يؤخذ من عش طائر الزقراق ويحفر حول هذا الحجر الكلمات : — « أما عيسى فجاز في وسطهم ووضي (إنجيل لوقا، الإصحاح ٤، الآية ٣٠) . فإذا ما صنع الشخص هذا الخاتم ووضعه في أصبعه ونظر إلى المرأة ولم يشاهد نفسه فذلك دليل على أنه قد نجح في صنعه . ولقد ذكرنا فيما سبق أن الساحر يعمل في بعض الأحيان على إبطال تأثير التعاويد والرقى التي يقوم بها ساحر آخر ومن ثم تنشأ بين الساحرين حرب لا هوادة فيها تكون الغلبة فيها للساحر الذي يتفوق بفنه وعلو كعبه في السحر على غريمه، بل يستطيع الساحر القوي أن يقضي قضاء تاماً على الساحر الأقل

منه علماً وفناً وبقيدته هو نفسه بتعاويذه الخاصة فلا يستطيع الفكاك منها . وقد ذكر بعض المؤرخين أنه كانت هناك جزيرة في بلاد القوط الشرقيين بها إبراهيميتان وكان بهذه الجزيرة مغارة تمتد مسافات طويلة في جوف هذه الجزيرة . وكان بهذه المغارة ساحر يدعى « جلبرت » وقد نفاه إلى هذه المغارة منذ الأزمنة القديمة أستاذه « كاتيوم » لأنه تجاسر عليه وسبه واحتقر صناعته فنفاه إلى هذا المكان بفنه السحري . وكان هذا الساحر المنفى لا يستطيع تحريك أى عضو من أعضاء جسمه إذ كان مشدوداً إلى عارضتين من الخشب عليهما كتابات قوطية وأوربية قديمة ..

وتذهب الأسطورة إلى أن هذا الساحر سوف يظل في محبسه هذا إلى أن يتمكن ساحر آخر من تخليصه من ربة تعويذة أستاذه الذى نفاه إلى هذه المغارة . وكانت هذه المغارة في القرن السادس عشر موضع كثير من الخرافات المفضرة ولم يجسر أحد من أهل ذلك العصر أن يدخل هذه المغارة المخيفة . ولعل أشهر التعاويذ والرقى التى كانت منتشرة في العصور الوسطى وكان لها شأن هام هى تعاويذ الحب وتعاويذ الموت ، وكان لهذين النوعين من التعاويذ سحرهما الخاص في نفوس أهل العصور الوسطى وذلك لاتصاهما بظاهرتين أساسيتين لا يخلو

أن يتعرض لهما الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته وهما الحب والموت . وكان الرأي أن الساحر الذى ينجح في تحضير هذين النوعين من التعاويذ يكون قد بلغ الذروة في فنه السحري .

وتعرف تعويذة الحب باسم « رحيق الحب » وقد وردت هذه العبارة كثيراً في مؤلفات العصور الوسطى وكذلك في الملاحم الشعرية والروايات التمثيلية والأعاجيب ، إذ كان هذا الرحيق السحري هو الملجأ الأخير الذى يلجأ إليه المحب عندما تعييه الحيل ويستعصى عليه محبوبه . ورحيق الحب عبارة عن سائل من الخمر يضاف إليه خليط من الأعشاب والعقاقير الذى تكسبه خاصية بعث الحب وإثارته في نفس الشارب فإذا ما شرب الرجل أو المرأة هذا الرحيق تعلق قلبه بشخص بعينه ووقع في أسر الحب .

وقد ذكرت بعض مؤلفات العصور الوسطى طرق تحضير هذا الرحيق ولعل أشهر هذه الطرق هي أن يأخذ المرء قاب حمامة وكبد عصفور دورى ورحم سنونو (عصفور الجنة) وكلية أرنب برى ويصنع من هذا كله مسحوقاً ناعماً ، ثم يضيف الشخص الذى يقوم بتركيب هذا الرحيق إلى هذا الخليط قدرًا من دمه مساوياً لما أخذ من هذه الأصناف وذلك بعد تجفيفه وجعله على هيئة مسحوق . فإذا ما تناول الشخص المراد تعليق قلبه بالحب قدرًا من هذا الرحيق ما بين درهمين

أو ثلاثة فسرعان ما تظهر نتيجة هذا العمل .

ويوجد في متحف ليبسك صورة بديعة من رسم فنان فلمنكى غير معروف يرجع تاريخها إلى منتصف القرن الخامس عشر . وتمثل هذه الصورة ساحرة شابة تحضر رحيق الحب وهى واقفة عارية وسط غرفة مهجورة . ويظهر فى هذه الصورة صندوق محمول على كرسى صغير وفى داخل هذا الصندوق قلب آدمى . وفى يد هذه الساحرة قنينة يتساقط منها السائل قطرة قطرة على القلب الموضوع داخل الصندوق . ولم يطل الانتظار بهذه الشابة طويلا ترى نتيجة سحرها لأن فتى أحلامها ما لبث أن أطل عليها من باب الغرفة وهو على استعداد لتلبية رغبات آسرة قلبه . وتبين لنا هذه الصورة كيف كانت الساحرة تقوم هى نفسها بتحضير هذا الرحيق العجيب . وكان الناس الذين يرغبون فى الحصول على هذا الرحيق يلجأون عادة إلى السحرة المحترفين ليحضروا لهم هذا الرحيق . ومن المتناقضات العجيبة فى مملكة السحر أنه كان يقوم بتحضير أقوى هذه الأنواع من رحيق الحب الساحرات القبيحات المنظر اللواتى بلغن من العمر أرذله .

ولم تكن تعاويز الحب دائماً على شكل سائل . والظاهر أن الناس قد تخلوا عن رحيق الحب إلى حد ما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وذلك لصعوبة تحضيره ولصعوبة حمل الشخص

على شرب هذا الرحيق دون أن يدرك كنهه ولذلك بلحثوا إلى وسائل أخرى أكثر سهولة وأفضل أثراً من ذلك النظر إلى الشخص المراد إيقاعه في الحب ثم التفوه ببعض الصيغ والعبارات السحرية أو لمس يد هذا الشخص بعد أن تدهن راحة اليد بعصير نبات الفرفريجين . وقد تبدو هذه الوصفة سهلة هينة ولكن من النادر العثور على نبات الفرفريجين هذا .

وكانت هناك تعويذة أخرى تؤدي إلى نفس هذا الغرض المنشود دون أن يتطلب الأمر إعداد هذا الرحيق أو لمس الشخص المراد إيقاعه في شرك الحب وهي عبارة عن رسم يتألف من دائرة كبرى وفي داخلها أنصاف دوائر وصليب ومربع موضوعة على نظام خاص ومنقوش حول الدائرة الكبرى هذه الفقرة المأخوذة من الكتاب المقدس :

« فقال آدم هذه الآية عظم من عظامي ولحم من لحمي ، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً (سفر التكوين الإصحاح الثاني ، الآيتان ٢٣ ، ٢٤) . وبهذه التعويذة أيضاً أحرف عبرية موضوعة على شكل حلقة .

والآن ننتقل إلى النوع الثاني من هذه التعاويذ وهي التي كانت تلقى الرعب والفرع في قلوب الناس ونقصدها بها تعاويذ

الموت . وكانت أشهر هذه التعاويذ عبارة عن تمثال شمعي يصنع على هيئة الشخص المراد إهلاكه ثم يأخذ الساحر في طعن هذا التمثال الشمعي بمختلف أدوات الطعان فتنتقل هذه الطعنات والوخزات إلى الشخص الحقيقي بوسائل خفية فيموت دون أن تكون هناك علة ظاهرة لموته . وكانت السحرة في بعض الأحيان تستخدم قلب الإنسان بدل التمثال الشمعي ويوخزون القلب بالإبر الطويلة فتحدث مثل هذه الوخزات في قلب الشخص المراد إهلاكه . وقيلما كانوا يستخدمون الجحماجم لهذا الغرض ذاته .

وذكرت المصادر المختلفة أنه كان ببلاط فرنسا في القرن السادس عشر منجم مشهور يدعى كوزمو روجيري من أهل فرنسا وأن هذا المنجم قد برع في عمل تعاويذ الموت وقد استعان به رجال البلاط الفرنسي في قضاء مآربهم المختلفة بواسطة تماثيله الشمعية المهلكة . ويوجد في المكتبة الأهلية بباريس مخطوط يحوى خطاباً موجهاً من كاترين دي مديسى إلى النائب العام الفرنسي وفيه تهم كوزمو روجيري بأنه صنع تماثلاً شمعيّاً بقصد سيء ضد الملك شارل التاسع في عام ١٥٧٤ وتشكو الملكة من ذلك قائلة : « سيدى النائب العام ، أمس أخبرنى بعض الناس نيابة عنك أن كوزمو قد صنع تماثلاً شمعيّاً وأخذ يكيل الضربات إلى رأسه وأن القصد من هذا التمثال هو إيذاء الملك . وقد

استعلم كوزمو. عما إذا كان الملك قد تقاياً أو لا يزال يدمى وما إذا كان يشعر بالآلام في الرأس .

وقد تم بالفعل القبض على كوزمو في اليوم التالي .
والغريب أن شارل التاسع قد توفي بعد ذلك الحادث بشهر واحد إذ انتابه هزال مخفي . وقد ذكر البعض أن ساحراً بروتستانتيّاً قد سحره إذ كان يذيب يوماً بعد آخر التماثيل الشمعية التي تمثله وأن حياة الملك كانت تتدهور هي الأخرى يوماً بعد يوم بسبب هذا العمل السحري .

وكان البلاط الإنجليزي أيضاً نهياً لهذا الفرع والخوف من التماثيل الشمعية المهلكة . ففي صباح يوم من أيام عام ١٥٦٠ استدعى المجلس المخصوص الدكتور جون دي منجم البلاط الملكي على عجل فقد عثر على تمثال شمعي للملكة اليصابات وبه دبوس كبير مغروز في الصدر . وقد انتقل المنجم ومعه أحد الوزراء إلى ريشموند حيث كانت الملكة تقضي عطلتها في قصرها الذي يطل على النهر . وهناك أخذ المنجم يشرح للحاضرين ومن بينهم الملكة طبيعة تعاويد الموت وكيفية إعدادها عاملاً جهده على تسكين روع الملكة التي أخذ منها الخوف كل مأخذ لأن المأثور عن الملكة اليصابات أنها كانت تعتقد في السحر والخرافات .

الفصل السادس

عقاب السحرة

كان الناس خلال العصور الوسطى وحتى نهاية القرن السابع عشر يتعقبون السحرة في كل مكان ويعملون على قتلهم واستئصال شأفتهم بل كانوا إلى ما بعد هذا القرن السابع عشر يتعقبون هؤلاء السحرة في ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا . إذ كان الناس ينسبون كل الكوارث التي تحمل بالآفراد وبالبلاد إلى عمل هؤلاء السحرة فهم يعدونهم من الكفرة أعداء الإنسانية الذين ينتظرهم أشد العقاب في العالم الآخر .

وتذهب الروايات إلى أن الشياطين أنفسهم كانوا يمسكون بالسحرة الذين انتهت فترة السماح الممنوحة لهم لمزاولة أعمالهم السحرية ويحملونهم إلى جهنم حيث المكان المعد لتعذيب كل واحد منهم .

على أن الناس في تلك العصور لم يكونوا ليقتنعوا بهذا العقاب الذي ينتظر السحرة في نار جهنم إنما كانوا يحبون أن ينتقموا بأنفسهم من هؤلاء السحرة جزاء وفاقاً لما قاموا به

من أعمال قصدوا بها إلحاق الضرر بالناس دون رحمة أو شفقة لذلك كانوا يقبضون على هؤلاء السحرة ويقدمونهم إلى المحاكم التي تقدمهم بدورها إلى آلات التعذيب التي تنتهى غالباً بقتلهم شر قتلة .

وكان الناس من ناحية أخرى يواظبون ويثابرون على تعقب السحرة وقتلهم إطاعة لما جاء في الكتاب المقدس : « لا تدع ساحرة تعيش » (سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والعشرون ، الآية ١٨) .

ومن المؤكد أن العقوبات التي كانت تفرضها القوانين الأوربية المتقدمة على السحرة كانت أهون بكثير من العقوبات المنصوص عنها في الشريعة الموسوية . إذ كثيراً ما كانت تفرض الغرامات المالية على من يتهم بالسحر . ونجد أيضاً أن المجامع الدينية مثل مجمع لوديسيا الذي عقد في عام ٢٦٣ للميلاد وكذلك مجمع برخستد الذي عقد عام ٦٩٧ كانت تقنع في أحكامها بإخراج الساحرة أو الساحر من حظيرة الكنيسة المسيحية أو فرض غرامة مالية عليه . كذلك لم يغال القضاة المدنيون في العصور الوسطى في الحكم على هؤلاء السحرة دون سبب معقول . ففي عام ١٣٠٣ اتهم جيشار أحد الأساقفة بأنه ولد بجان من الجن وأنه كان يستدعيه كلما رغب .

فى ذلك فكان جزاؤه السجن ثم رد اعتباره فيما بعد .
ولم تشتد العقوبات التى كان يحكم بها على السحرة إلا
ابتداء من القرن الخامس عشر إذ كانت من القسوة والشدة
بحيث تقشعر منها الأبدان وخاصة فى فرنسا وإسبانيا . فقد كان
ذلك القرن هو عهد اضطهاد وتعذيب السحرة بالمعنى الصحيح .
فى الوقت الذى كانت فيه تقنع السلطات البرتغالية بنفى
السحرة إلى خارج البلاد كانت فرنسا وخاصة فى مقاطعة
أرتوا تعذب السحرة بمنتهى الشدة والقسوة إذا كانوا يستجوبون
ويعذبون وتوضع النيران تحت أقدامهم أو يجبرون على ابتلاع
الزيت المغلى .

ولقد كانت هذه القسوة فى معاملة السحرة موضع تساؤل
فى البرلمان الفرنسى فى عام ١٤٩١ حتى إن أعضاء هذا البرلمان
قد أصدروا قراراً بإلغاء جميع المحاكمات التى كان ينظرها
قضاة أراس متهمين هؤلاء القضاة بأنهم يسعون إلى الاستحواز
على ممتلكات السحرة ، بل إنهم أجبروهم على دفع غرامات
مالية كبيرة لضحاياهم على سبيل التعويض . وليس من شك
أنه قد اتهم أناس كثيرون بالسحر والشعوذة زوراً وبهتاناً لأسباب
كثيرة غير السحر حكم على هؤلاء الأبرياء بالسجن والتعذيب
دون أن يقرؤوا فى واقع الأمر بجرماً يستحقون عليه هذا العذاب .

وقد توقفت هذه المحاكمات فترة من الزمن حتى لكأن الناس في تلك الفترة كانوا على جانب كبير من التسامح وسعة الأفق . ثم جاء القرنان السادس عشر والسابع عشر وفيهما استؤنف اضطهاد السحرة وبعديهم من جديد .

ونذكر من بين القضاة الذين عاملوا هؤلاء السحرة بمنتهى القسوة والوحشية هنرى بوجيه قاضى قضاة كونتية بربجاندى . فقد نشر هذا القاضى فى عام ١٦٠٣ كتاباً عن السحرة وما يجب على القاضى أن يتبعه من التعليمات عند محاكمته للسحرة . وهو يذكر فى هذا الكتاب بصراحة متناهية أعمال القسوة التى قام بها فى محاكماته للسحرة . وقد أخذ البرلمان الفرنسى لمدة طويلة بهذه التعليمات التى ذكرها هذا القاضى . وقد أشعرت أسرته بعد وفاته بالحجل لما قام به هذا القاضى من أعمال تتنافى والإنسانية . لذلك أعدمت جميع نسخ هذا الكتاب التى أمكنها الحصول عليها .

ولا يقل عنه شهرة فى هذا الميدان القاضى مارتن دل ريو أحد قضاة مجلس الدم الذى أنشأه دوق ألثا لمطاردة السحرة فى بلاد القلاندرز .

وهناك آخرون من غير القضاة نشروا عدة كتب خاصة بأنواع العقوبات التى يجب إنزالها بالسحرة والمشعوذين ، كما

قام بعض رجال الدين من المسيحيين بنشر الرسائل الخاصة بهذا الموضوع ذاته .

وفي إنجلترا قام الملك هنرى الثامن والملاكة اليصابات باضطهاد السحرة وتعذيبهم بمتهى العنف والقسوة . ولا ننس في هذا المقام الملك جيمس الأول الذى كتب بخط يده رسالة فى اضطهاد السحرة نشرت فى هانوفر عام ١٦٠٤ .

وهذه الرسالة عبارة عن نقاش فى ثلاثة أجزاء بين شخصيتين وهميتين هما فلما توس وإبستيمون . ويعبر هذا الأخير عن آراء الملك جيمس . ويتناول هذا النقاش بالتفصيل كل ما يتصل بالسحرة والشياطين وعلوم الغيب بتعصب شديد . ويتحدث الملك جيمس فى هذه الرسالة على لسان إبستيمون عن السحرة بدون رحمة أو شفقة . فى بداية الفصل السادس من الجزء الثالث نقرأ المحاورة التالية :

فلما توس . — والآن لكى نصل بحديثنا إلى نهايته لأنى أرى أن الليل قد أخذ يرخى سدوله — فى أسأل عن العقاب الذى يستحق أن ننزله بالسحرة والعرافين الذين يوصمون بهذه الأعمال لأنى أشعر أنك تضع هؤلاء جميعاً فى درجة واحدة من درجات الاتهام .

إبستيمون — إن السحرة والعرافين يجب أن يذوقوا طعم

الموت فإن هذا هو الإجراء الحكيم تنفيذاً لحكم الله وللقانون المدني والإمبراطوري ولقانون جميع الشعوب المسيحية بصفة خاصة أينما كانت هذه الشعوب .

فلما توس - ولكن أرجو أن تخبرني عن كيفية إعدامهم كما أوضحت ذلك ؟

إبستيمون - الموت بلهيب النيران هو ما يجب أن يحل بهم على أن ذلك لا يهم ما دام سينفذ فيها حكم الإعدام وفقاً لما تنص عليه القوانين ويقضى به العرف والقواعد المرعية في البلد التي يكونون فيها .

فلما توس - هل ترى أنه يجب أن تكون هناك بعض الاستثناءات أو ندخل في اعتبارنا مسألة الجنس ذكراً أم أنثى كان ذلك الساحر كبير السن أو صغيراً أو بسبب اختلاف مراكزهم الاجتماعية .

إبستيمون - أرى أنه يجب ألا يكون هناك أي استثناء لأن المفروض أن لا يكون هناك أي اعتبار لمثل هذه الأشياء أمام القاضي . فكل من يرتكب هذا الجرم يجب أن يعاقب وفقاً لسنة الله ولا يستثنى أحد من ذلك .

ولما زاد اضطهاد الناس للسحرة وتفننوا في تعذيبهم والتنكيل بهم في القرن السادس عشر قام طبيب مشهور يدعى چان وير

(ولد عام ١٥١٥ وتوفي عام ١٥٨٨) وأصدر كتاباً نشر في عام ١٥٦٩ دلل فيه على أن كثيراً من الذين يتهمون بالسحر ليسوا سحرة إنما هم مرضى بمختلف الأمراض العصبية فلا يستأهلون هذا العقاب الذى يحل بهم . ولعل تناقص عدد السحرة الذين حوكموا وعذبوا في عهده يرجع إلى هذا الكتاب الذى ترك أثراً عميقاً في نفوس الناس فجعلهم يفكرون ويبحثون طويلاً قبل اتهم شخص بالسحر وإنزال العقاب به ، ولعل أشهر محاكمات السحرة التى تمت في فرنسا خلال القرن السابع عشر محاكمة جود فرى أحد القساوسة إذ اتهم بأنه سحر راهبة من الراهبات تدعى «ماجدلين ما ندل» فحكم عليه بالحرق حياً عام ١٦١١ وقد اعترف هذا الراهب أثناء المحاكمة أنه قد حضر اجتماعاً من اجتماعات السحرة التى أشرنا إليها سابقاً وكان ذلك جرمًا لا يغتفر .

وتحوى سجلات أقاليم فرنسا كثيراً من تلك المحاكمات التى انتهت غالباً بالحكم على المتهم بالموت على أشنع صورة ، وغالباً ما كان الحرق حياً هو العقاب الذى ينتظر الساحر . وقد أحرق قسيس إيطالى يدعى «بندتو بندا» وكان في الثمانين من عمره وقد اعترف هذا القسيس بأنه احتفظ في بيته بشيطانة تدعى هرملين طوال أربعين سنة وكان يصطحبها

معه أينما ذهب دون أن يراها أحد لأنها كانت غير منظورة .
ولعل أصغر السحرة الذين حوكموا هي فتاة صغيرة تدعى
« كاترين ناجوى » فقد أحرقت وهي فى الحادية عشرة من
عمرها لاثامها بالسحر . ونحن نعلم جميعاً أن جان دارك
محررة فرنسا قد أحرقت هي الأخرى حية لأنها اتهمت بالسحر .
وقد بلغت هذه المحاكمات بضع مئات .

وكان هؤلاء السحرة يعذبون بوحشية تقشعر لها الأبدان .
ولدينا عن هذه الأحداث وثائق مكتوبة ورسوم مطبوعة تبين
لنا الطباع والأعمال الوحشية التى كانت تسود عصر لا يزال
غير بعيد عنا . وقد اشتهرت هولندا بصفة خاصة بمحاكمات
السحرة وتعذيبهم بأبشع وسائل التعذيب ، فى إمستردام كانت
المرأة المتهمه بالسحر تشد شداً محكماً إلى سلم خشبى ثم يدفع
اثنان من الجلادين الأقوياء هذا السلم إلى النيران التى تكون قد
أعدت لهذا الغرض فتحرق المسكينة حرقاً . وجرى العادة على
أن يحضر القاضى تنفيذ الحكم الذى أصدره ويكون التنفيذ
غالباً فى أحد الميادين حيث يجتمع الناس لمشاهدة هذا المنظر
وهم راضون كل الرضا لأنهم على زعمهم قد تخلصوا من ساحرة
كانت مصدر شقوتهم وإلحاق الضرر بهم .

وقد خلف لنا كاتب هولندى يدعى إبراهيم بالنغ كتاباً

نشره في إمستردام عام ١٧٢٥ ويحوى أنواع التعذيب التي كانت تحل بالسحرة والعرافين بهولندا . منها التعذيب بالسياط وكان يقوم به عادة صبية صغار لكى يشتد ساعدهم وتغلظ قلوبهم فيصبحوا في يوم من الأيام جلادين للسحرة . وكان هذا النوع من التعذيب هيناً رقيقاً إذا قيس بالتعذيب بواسطة الكلابات المزودة بالأشواك الحديدية .

وكانت هيئة المحكمة تجلس أمام المتهم وتأخذ في استجوابه بينما يقوم الجلادون بالضغط على أطرافه بهذه الكلابات المؤلمة .

وكانت هناك وسيلة التعذيب بواسطة الطوق الحديدى وهو عبارة عن طوق مبطن بالأشواك الحديدية البارزة يطبق على عنق الساحر فيناله منه أقصى أنواع التعذيب . كما كانوا يعذبون السحرة بوضع أرجلهم فوق لهيب الفحم المتقد .

وكثيراً ما كان المتهم تفيض روحه قبل أن تتم محاكمته لما يلقاه من هذا العذاب فينصرف القضية إلى شئونهم ويتركون الجثة بين أيدي الجلادين لمتابعة إحراقها أو التنكيل بها وكأن المتهم لا يزال على قيد الحياة .

وجرت العادة في كل من إسبانيا وإيطاليا على أن يرتدى السحرة عند تقديمهم إلى المحاكمة زياً خاصاً عبارة عن مئزر

عليه رسوم جن وشياطين يحركون نيران الجحيم ليزداد أوارها .
وتذكر المصادر الخاصة بأنخبار السحرة والمشعوذين في
العصور الوسطى أن الغالبية الكبرى من السحرة كانت تقطن
إقليم بامبرج من أعمال ألمانيا لذلك كان يوجد في هذه المدينة
بناء خاص تحاكم السحرة فيه ولم يكن في أوروبا كلها بناء
آخر أقيم لمثل هذا الغرض . وكان يطلق على هذا البناء اسم
« بيت السحرة » وقد شيد هذا البيت في عام ١٦٢٧ . وكان
في زمانه يعتبر من أعاجيب فن البناء ولا تزال بعض المتاحف
الأوربية تضم الأدوات التي كان يضمها هذا البيت . وكان
منقوشاً على واجهة البيت فوق المدخل هذه الفقرة من أشعار
فرجيل :

« تعلم الحكمة ما شاء لك أن تتعلم ولكن حذار أن تسهين
بالآلهة » .

ونقشت على لوحين صغيرتين فوق الجزء الأعلى من هذه
الكتابة الترجمة اللاتينية والألمانية للآيات السابعة والثامنة
والتاسعة من الإصحاح التاسع من سفر الملوك الأول وهي :
« وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه يتعجب ويصفى
ويقولون لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت ، فيقولون
من أجل أنهم تركوا الرب إلههم الذي أخرج آبائهم من أرض

مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر .

وكان هذا البيت يتألف من طابقين وفي مؤخرته كنيستين صغيرتين الواحدة منهما فوق الأخرى . وكان به غرفة للتعذيب وغرف أخرى صغيرة يحبس فيها السحرة قبل تقديمهم إلى المحاكمة وكان بكل غرفة منها طاقة صغيرة بالقرب من سقف الغرفة . وكان بالقرب من الكنيستين غرف القضاة كما كان بالطابق العلوى غرفة أخرى تعرف بغرفة الاعتراف .

وقد تخلصت بلدية بامبرج من هذا البيت عندما أتيحت لها الفرصة وذلك لتمحوا أثراً من آثار البربرية التي كانت سائدة في أوروبا حتى عهد قريب .

الفصل السابع

السحر عند الشعوب البدائية

كاد السحر أن يتلاشى الآن بين الدول والشعوب المتحضرة وإن كانت هناك بعض الآثار المختلفة التي تدل على الأعمال والطقوس السحرية التي كانت تمارس على نطاق واسع منذ قرون قليلة مضت بين هذه الدول والشعوب .

فالإنسان الحديث وإن كان قد بلغ هذا الشأو الكبير من العلم والحضارة إلا أنه لا يزال يحن شوقاً إلى المجهول الخفي ويسعى إلى طلب العون منه كلما حزبه الأمر وضائق أمامه سبل العيش . على أن بعض الناس تكون العاطفة الدينية قد تأصلت في نفسه وقويت على غيرها من العواطف الأخرى الدفينة فيلجأ في وقت الشدة إلى هذه القوة العليا التي نسميها الله ويعمل على استرضائها بالصلوات والابتهالات وغير ذلك من الطقوس والشعائر الدينية على يجد عن طريقها الفرج بعد الشدة والراحة بعد العناء . وهناك آخرون وإن كانوا في الوقت ذاته يعتقدون في الله ويؤمنون به إلا أنهم مع ذلك ينشدون معونة القرى الخفية

الأخرى ويعملون على استرضائها بمختلف الطقوس والأعمال السحرية ، كما أنهم لشوقهم إلى معرفة المجهول نجدهم يستطلعون الغيب بمختلف الوسائل التي لا تزال شائعة بيننا حتى اليوم . وهم لا يعدمون أن يجدوا بين الناس من يدعى القدرة على الاتصال بهذه القوى الخفية والاستعانة بها على قضاء الحوائج والرغبات أو يدعى معرفة الغيب عن طريق الضرب في الرمل أو قراءة الكف أو النظر في النجوم أو غير ذلك من وسائل الكهانة والتنبؤ بالغيب . .

والغريب في الأمر أن هذه النزعة إلى التطلع إلى الغيب والاستعانة بالقوى والأرواح الخفية لا يقتصر ظهورها على الطبقات الدنيا من أهل هذه الدول والشعوب المتحضرة بل هي أيضاً فاشية بين أرفع الطبقات وأعلاها ممن نالت حظاً لا يستهان به من الثقافة والعلم . وتطالعنا الصحف من وقت لآخر بأخبار وقصص من هذا النوع تدل على تأصل هذه النزعة السحرية في النفوس على الرغم من هذا التقدم الهائل الذي أحرزه الإنسان في ميدان العلوم المادية حتى كادت حضارة هذا العصر الحاضر تتسم بالمادية الصرف والبعد عن جميع الروحانيات التي كان لها الشأن الأول في وقت من الأوقات . وإذا كان هذا هو الحال الآن بين الدول والشعوب

المتحضرة فإن الحال أعجب من ذلك بكثير بين القبائل والجماعات البدائية التي لا تزال تعيش إلى الآن في بقاع مختلفة من أنحاء العالم . وهذه القبائل تعيش حتى اليوم على الفطرة لأنها أو—على الأقل—الكثير منها لم يختلط قط بأى مظهر من مظاهر الحضارة لذلك هم يعيشون على النحو الذى كان يعيش عليه الإنسان منذ عشرات الآلاف من السنين .

وأول ما نلاحظه أنه لا تخلو قبيلة من القبائل الهمجية من طائفة السحرة وهى وحدها الطائفة التى تحتكر جميع المهن والحرف فى كل قبيلة من هذه القبائل . والاعتقاد بين هذه الجماعات البدائية أن للسحر قوى فوق القوى الإنسانية بها يستطيعون السيطرة والتحكم فى جميع القوى الطبيعية وأن هؤلاء السحرة على اتصال وثيق بالأرواح المختلفة الطيب منها والخبيث كما أن لهم الغلبة والسلطان على جميع الآلهة ، فالساحر فى مرتبة أعلى من مرتبة الإله الذى تعتقد فيه القبيلة من هذه القبائل البدائية .

ومما هو معلوم من صفحات التاريخ أن الأمم القديمة التى نالت حظاً كبيراً من التقدم والحضارة كانت تنظر أيضاً إلى الساحر على أنه فى مرتبة أعلى من مرتبة الآلهة . فى مصر القديمة كان السحرة يدعون أن لهم القدرة على إرغام أعظم الآلهة وأجلهم

شأنًا على تنفيذ أوامرهم ونواهيهم ، وكان الساحر عند قدماء المصريين يهدد الآلهة بالدمار في حالة التمرد والعصيان والخروج عن طاعته .

ولا يزال الثالث الهندي المقدس إلى اليوم — ويتألف من براهما وقشنو وسيثا — يخضع للسحرة ويأتمر بأوامرهم . فهذه الآلهة الهندية تقوم بتلبية رغبات السحرة سواء ما كان منها في عالم السماء أو في العالم الأرضي لأنها لا تقوى على مقاومة تعاويذ ورقى السحرة الهنود . وهناك قول مأثور في الهند وهو : « إن العالم بأسره يخضع للآلهة والآلهة تخضع للرق والتعاويذ وهذه تخضع للبراهمة ومن ثم فالبراهمة آلهتنا » .

ولقد كان النزاع على أشده منذ القدم بين الدين والسحر وهذا يفسر لنا العداء المستحكم الذي كان ملحوظاً بين الكاهن والساحر في الأمم القديمة فالكهنة كانوا لا يرضون عن أعمال السحرة وادعائهم القدرة على السيطرة على القوى الطبيعية وإخضاع الآلهة ذاتها إذ كانوا يعدون ذلك افتئاتاً على حقوق الآلهة واغتصاباً لامتيازات وصفات اختص بها الآلهة وحدهم دون غير . ثم كان الكهنة في الوقت ذاته يعدون أنفسهم الواسطة الحقيقية بين البشر والآلهة . وليس من شك أن مكانة الكهنة الاجتماعية ومصالحهم المادية كانت مهددة على أيدي هؤلاء السحرة الذين كانوا يدعون بدورهم أنهم الوسيلة الأكيدة

والواسطة المحققة لمن أراد النجاح والتوفيق في الحياة الدنيا والآخرة .
 على أن هذا العداء بين الدين والسحر لم يتضح على ما
 يظهر إلا في عهد متأخر نسبياً من تاريخ الدين . فقد كانت
 وظيفة الكاهن والساحر في المرحلة الأولى من الدين متحدة أو
 متشابهة على الأغلب فلم يكن يفرق عمل الواحد منهما عن عمل
 الآخر . فالإنسان كان إذا أراد أن يصل إلى غرض من
 أغراض الدنيا أو الآخرة كان عليه أن يتوود إلى الآلهة والأرواح
 لاستدراار عطفها ولم يكن ذلك إلا عن طريق الابتهاال وتقديم
 القرابين إليها وكان له في الوقت ذاته أن يستعين ببعض الطقوس
 والاحتفالات وتلاوة بعض الصيغ والعبارات التي كان يأمل
 من ورائها أن تتحقق له آماله دون حاجة إلى معونة الآلهة والأرواح
 المختلفة ، أي أنه كان يقوم في وقت واحد بشعائر دينية وأخرى
 سحرية دون أن يجد في مسلكه هذا أي شيء من التناقض
 ما دام همه الوصول إلى ما يريد .

وعلى هذا الأساس نجد أن السحرة في القبائل الهمجية
 هم في الوقت ذاته كهنة هذه القبائل أي الرجال القائمون على
 شئون الدين فهم الذين يقربون القرابين للآلهة لطلب عونها
 في الملمات والكوارث .

ومن الظواهر العجيبة بين هذه الأقوام البدائية أن كل

واحد من أفرادها يرى في نفسه القدرة على القيام بالأعمال السحرية لتحقيق رغباته أو إيقاع الأذى بأعدائه . على أننا نجد أن بعض الناس في كل قبيلة من هذه القبائل الهمجية قد اتخذوا تلك الأعمال السحرية مهنة لهم يكسبون بها معاشهم دون حاجة إلى الاشتراك في الأعمال المختلفة العنيفة التي يقوم بها الأفراد الآخرون في سبيل لقمة العيش . ففي كل جماعة من هذه الجماعات البدائية أشخاص يدعون القدرة بأعمالهم السحرية على التحكم في الأجواء وفي الأمواج والأنواء وأنهم يستطيعون إبراء المرضى أو إلحاق الضرر بالغير عن طريق الرقى والتعاويذ .

والقاعدة أن يتخصص كل واحد في ناحية من هذه الأعمال السحرية وإن وجد في الوقت ذاته أشخاص شملت مهارتهم جميع هذه الأعمال والنواحي . ويتناقل الخلف عن السلف هذه المعارف والأعمال السحرية كما هو الشأن في المعارف المتصلة بالشعائر الدينية وطرق تقديم القرابين والقيام بالصلوات والابتهالات . والأغلب أن يجمع الشخص الواحد بين معرفته لهذه الطقوس والشعائر الدينية وبين القدرة على التحكم في الظواهر الطبيعية من رياح وأمطار وبرق ورعود وغير ذلك من الأعمال . وهذا الخلط بين السحر والدين قد ظل باقياً بين شعوب

بلغت مستوى عال من الحضارة والمدنية كما كان الحال في مصر القديمة وفي بلاد الهند بل إن هذا الخلط لم يتلاش تماماً بين أهل الطبقات الدنيا في كثير من دول أوربا وآسيا في الوقت الحاضر . والسحر وإن كان قد اختلط بالدين في كثير من العهود وعند كثير من الأمم والشعوب إلا أن هناك من الدلائل ما تدل على أن الإنسان في وقت من الأوقات قد لجأ إلى السحر وحده لإشباع رغباته والحصول على حاجاته التي تسمو على قوى الإنسان العادية الأمر الذي دعا إلى القول بأن السحر أقدم من الدين مثال ذلك أننا نجد أن أهل أستراليا الأصليين وهم أكثر الأقوام ضرباً في الهمجية يمارسون السحر على أوسع نطاق بينما لا يعرفون الدين على أنه وسيلة يسترضون بها القوى العليا غير المنظورة فكل واحد منهم يرى في نفسه القدرة على تغيير مجرى القوى الطبيعية الكبرى عن طريق الأعمال السحرية ولكن لا يفكر أحد منهم في أن يستطعف ويسترضى الآلهة بإقامة الصلوات وتقريب القرابين .

وليس من شأه أن الإنسان قد أخذ يتحول من السحر إلى الدين تدريجاً عند ما رأى نفسه عاجزاً عن التأثير في قوى الطبيعة الكبرى والسيطرة عليها سيطرة تامة . وكان من دلائل هذا الانتقال والتحول اعتقاد بعض الشعوب أن الآلهة نفسها

لها خبرة ومهارة في أعمال السحر وأنها تحمى نفسها بالتمايم وتحصل على رغباتها بالرقى والتعاويد . ومن المعلوم أن قدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الآلهة هي الأخرى لا غنى لها عن السحر شأنها في ذلك شأن باقي الناس فهي تلبس الأحجية والتمايم وتستخدم الرقى والتعاويد ليقهر الواحد منها الآخر . والمعروف أن الإلهة إيزيس كانت بارعة في فنون السحر وقد اشتهرت بتعاويدها . وفي بابل اشتهر الإله « إيا » بأنه مخترع السحر وأن ولده مردخ قد ورث عنه فن السحر وكان يطلق عليه اسم ساحر الآلهة .

والحال عند القبائل البدائية أنه إذا فشل الساحر في بلوغ ما يصبو إليه من سحره نسب ذلك إلى عمل ساحر آخر أكثر منه مقدرة ومهارة لذلك بدأوا يفكرون في أن بعض الأعمال الكبرى كاستئصال المطر أو إثارة الرياح هي فوق قدرة أى ساحر من بنى البشر إنما هي من فعل كائنات أخرى غير منظورة أقوى من جميع البشر وهي الكائنات التي تطورت فيما بعد وأصبحت الآلهة عند هذه القبائل .

والسحر في القبيلة من القبائل الهمجية إما أن يكون موجهاً لصالح فرد واحد وإما لصالح أفراد القبيلة على السواء . ففي الحالة الأولى يطلق عليه اسم السحر الخاص وفي الثانية اسم السحر العام .

وأهم الأغراض التي يستخدم فيها السحر العام هو ضمان الحصول على الطعام لأفراد القبيلة ، إذ ليس هناك من غريزة أقوى من غريزة حفظ الذات لذلك نجد الأشخاص المشتغلين بتوفير الطعام لأفراد القبيلة — كالصيادين والزارعين — لا يخرجون لأعمالهم إلا بعد طقوس سحرية كثيرة معقدة يقوم بها سحرة القبيلة لضمان عودة هؤلاء الأشخاص مزودين بالكثير من الزاد والطعام .

إن اهتمام هذه الطائفة من السحرة — بل الواجب الملقى على عاتقها — هو معرفة كل شيء يمكن أن يعين الفرد من أفراد القبيلة في نضاله العنيف مع الطبيعة وكل شيء يمكن أن يخفف من آلامه ويطيل من حياته . ولقد استرعى انتباه هذه الطائفة خصائص العقاقير والمعادن وأسباب الأمطار والجفاف وأسباب الرعد والبرق وتغير الفصول وتعاقب أوجه القمر وحركة الشمس اليومية والسنوية وحركات النجوم والكواكب ولغز الحياة وسر الموت وغير ذلك من الظواهر التي استرعت أنظار الإنسان منذ أقدم العصور .

والواقع أنه لم توجد أية طائفة أخرى من الناس كان لها من الدوافع إلى تعقب الحقيقة أيما وجدت أقوى من الدوافع التي دفعت هؤلاء السحرة في الجماعات البدائية ، إذ كان

من الضروري لهؤلاء السحرة أن يظهروا على الأقل بمظهر العالم الخبير بهذه الأسرار وإلا فقدوا مراكزهم الممتازة بين أهل القبيلة والواقع أن ظهور هذه الطائفة من السحرة المتخصصين قد أفاد الإنسانية فائدة جليلة لأنها تعتبر النواة التي خرج منها الأطباء والجراحون والفلكيون والباحثون والمكتشفون في كل فرع من أفرع العلوم الطبيعية .

ولعل من أهم الواجبات الملقاة على عاتق السحرة في الأقوام والقبائل البدائية لصالح الجماعة هي التحكم في الأحوال الجوية وخاصة ضمان هطول مطر يكفي حاجات القبيلة إذ بدونه تجف النباتات ويهلك الإنسان والحيوان .

ومن ثم كان صانع الأمطار في الجماعات البدائية شخصية على بجانب كبير من الأهمية . وتوجد غالباً في كل جماعة من هذه الجماعات البدائية طائفة من السحرة عملها ضبط وتنظيم هطول الأمطار وفقاً لحاجات الجماعة . وكانت وسيلةهم إلى استئزال المطر تقوم عادة على مبدأ السحر التقليدي فإذا ما أرادوا استئزال المطر قاموا بأفعال تحاكي هطول الأمطار فيصطنعون نثر المياه كما هو الحال عند سقوط المطر . وإذا ما أرادوا إحداث الجفاف لجئوا إلى اصطناع ما من شأنه تسبب الجفاف كإيقاد النيران تجفيفاً لرطوبة الهواء . فنجد مثلاً أن السحرة في

القبائل الأسترالية البدائية تحمى الحجارة بالنيران ثم تعرضها بعد ذلك للمطر المنهمر أو أنهم يلقون بالرماد الملتهب في الهواء وهم يظنون أنه — بعملهم هذا — سوف يحتبس المطر لأنه لا يجب أن يحترق بهذه الحجارة المحمية وبهذا الرماد الملتهب . .

ولا تقتصر هذه الأعمال السحرية على القبائل والأقوام البدائية بل تقوم بها أيضاً جماعات نالت حظاً كبيراً من الثقافة والتدين . فقد جرت العادة على أنه إذا احتبس المطر مدة طويلة في بلاد اليونان اجتمع عدد من الصبية ويسرون في هيئة موكب وينتقلون حول العيون والآبار في الجهات المجاورة ويسير على رأس هذا المركب فتاة مزينة بالزهور والرياحين فإذا ما وقف الموكب عند بئر أو عين ماء أخذ منها الصبية بعض الماء ونثروه على الفتاة التي تسير على رأس الموكب وهم بذلك يعتقدون أن المطر لا يلبث أن ينهمر .

ونجد أنه عندما ما يعوز أهل قرية دربات من قرى روسيا سقوط المطر يخرج ثلاثة من رجال هذه القرية ويتسلقون أشجار الشربين ثم يأخذ أجدهم في الضرب بالمطرقة على طبلة صغيرة أو برميل مقلداً بذلك صوت الرعد ، بينما يقدح الآخر بجدوتين حتى يتطاير الشرر منها مقلداً بذلك وميض البرق . أما الثالث وهو الذى يطلق عليه اسم صانع المطر فيمسك

بيده حزمة من الأغصان الصغيرة يغمسها في إناء به ماء ثم ينثر ما علق بها من ماء في جميع الجهات .

والساحر في الشعوب والقبائل البدائية يعتقد أنه يستطيع بسحره أن يتحكم في الشمس ذاتها وأن يتحكم في الرياح فيثيرها إذا أراد ويوقفها عن الهبوب عندما يحب وهو غالباً يقوم بهذه الأعمال السحرية الكبيرة لصالح الجماعة كلها عند ما تطلب منه ذلك .

وإذا كان الساحر في الشعوب البدائية يعتقد أنه يستطيع التحكم في هذه القوى الطبيعية الكبرى من رياح وأمطار وبروق وزعود فهو بطبيعة الحال له القدرة على التحكم في الأفراد بمعنى أنه يستطيع إلحاق الضرر بالغير كما أنه يقدر على تخليص الفرد مما قد يحل به من آلام وشروخ نتيجة لفعل الأرواح الخبيثة كما هو الاعتقاد عند هذه الجماعات البدائية . فهو يلجأ إلى الدمى والتصاوير التي تمثل الشخص الذي يريد إلحاق الأذى به ويعمل فيها سحره الضار فينتقل هذا السحر إلى الشخص ذاته الأمر الذي لا يزال يفعله مدعو السحر حتى اليوم في كثير من الأمم والشعوب المتحضرة وهذا هو السحر الأسود الذي كان منتشراً كل الانتشار إبان العصور الوسطى على ما ذكرنا في موضع آخر من هذا الكتاب .

ولعل الطب هو من العلوم التي ترتبط برباط وثيق بفن السحر منذ أقدم العصور . فالإنسان يعتقد على الدوام في الطب وإن كان إنسان ما قبل التاريخ والإنسان البدائي يطلق على الطب اسم السحر . فمن الأمور التي لفتت نظر الإنسان واهتمامه على الدوام ما يجرى داخل جسمه وكيف يتحرك هذا الجسم ويقوم بوظائفه المختلفة . والإنسان في جميع مراحل تاريخه كان في حاجة ملحة إلى نوع من الطب لأن الإنسان لم يخل من العلل والأمراض في أى عصر من العصور . والمعروف أن العصر الجيولوجى الذى يطلق عليه العلماء اسم العصر الفحشى وهو الذى يرجع تاريخه على ما يقول بعض علماء الجيولوجيا إلى أكثر من ١٨٠ مليون سنة كانت تعيش فيه أنواع مختلفة من الميكروبات والبكتريا .

ويذكر العلماء أن حفريات أقدم أنواع القرود الشبيهة بالإنسان وهى التى يطلقون عليها اسم إنسان جاوله بها آثار خراج فى الفك ، بل إن بقايا حيوانات ما قبل التاريخ تدل على أن هذه الحيوانات كانت تصاب بأمراض النقرس والتهاب العظام وتسوس الأسنان وغير ذلك من الأمراض .

وعندما ظهر الإنسان الحديث منذ ما يقرب من أربعة عشر ألف سنة بدأت تظهر الوسائل البدائية فى العلاج . ومن

المعلوم جيداً أن إنسان العصر الحجري وهو الذى كان موجوداً منذ ستة آلاف سنة مضت قام بصنع آلات حادة من حجر الصوان كالسكاكين والمحكات وقد استخدم هذه الآلات الحجرية فى القيام بعمليات التربة أى فتح جماجم الرجال والنساء الذين كانوا يقاسون من الأمراض بسبب أعمال الأرواح الشريرة .

وهذا هو التفسير الوحيد المعقول الذى يمكن أن نفسر به وجود عدد من الجماجم البشرية وبها ثقوب مستديرة منتظمة مما يدل على أن هذه الثقوب قد تم عملها إبان حياة الشخص ثم اندملت أو جزء منها على الأقل بمرور الزمن . وكان الغرض من عمل هذه الثقوب فى جمجمة المريض إتاحة الفرصة للأرواح الخبيثة التى حلت بالمريض لأن تخرج من هذه الثقوب لكى يبرأ المريض من علته .

وليس من شك أن هذا العلاج فى حد ذاته كان أخطر فى الواقع من المرض الذى كان يشكو منه المريض . على أن وجود مثل هذه الجماجم وبها الثقوب التى اندملت للدليل على أن بعض هؤلاء المرضى قد ظل حياً بعد انتهاء هذه العملية الجراحية الخطيرة . وكانت هذه العملية كثيرة الحدوث إبان العصر الحجري .

ولدينا من الشواهد ما يدل على أن الأمراض كانت منتشرة بين الإنسان في عصور ما قبل التاريخ وفي عهد الإنسان الأول. فقد تم العثور في إحدى المقابر القديمة بالقرب من هيدلبرج من أعمال ألمانيا على هيكل إنسانى به إصابات بالسل بالعمود الفقرى كما كانت أمراض النقرس وتسوس الأسنان وغير ذلك من أمراض العظام منتشرة في تلك العهود القديمة من تاريخ الإنسان .

وليس من شك أن الإنسان الأول كان على مستوى عال من الذكاء فالأثار التى خلفها هذا الإنسان مثل الأدوات الجميلة التى قدها من حجر الصوان والرسوم البديعة التى خلفها على جدران الكهوف والمغاور وكذلك مصنوعاته التى صنعها من الخشب والعظام والعاج كلها تدل على أنه كان على قدر كبير من المهارة الفنية . وليس من المعقول أن نفترض أنه لم يطبق ذكائه هذا بشكل ما على معالجة الأمراض وحوادث الحياة .

وليس لدينا بطبيعة الحال إلا شواهد قليلة جداً من الحفريات التى عثرنا عليها مما تتصل مباشرة بهذه الناحية ، ولكن لدينا ما يماثلها عند الإنسان البدائى الذى لا يزال موجوداً في وقتنا الحديث فإذا ما طبقنا هذه الأمثلة التى نجدناها عند الأقوام والشعوب البدائية بحذر وتدقيق فإنه يمكن أن نكون صورة ما عن الطب كما كان يمارسه الإنسان الأول وإنسان ما قبل التاريخ .

ويمكن أن نلخص أسلوبه أو طريقته الطبية في معالجة الأمراض في كلمة واحدة وهي السحر . ويمكن أن ندرس هذه الطريقة بدراسة ما يمثّلها عند بعض الأقوام والقبائل البدائية الحالية كأهل أستراليا الأصليين وأهالي بعض أنحاء غينيا الجديدة وقبائل البوشمان في جنوب إفريقيا .

نجد أن الطب عند هذه الأقوام البدائية يتصل اتصالاً وثيقاً بالسحر فالرجل الذي يقوم على علاج الأمراض عند هذه الأقوام يعرف باسم « الطبيب الساحر » . وهو شخصية تهابها أفراد القبيلة جميعاً ومع ذلك فهي تثق فيه وبقدرته العلاجية . فالأهالي في تلك القبائل والجماعات البدائية تنسب عادة المرض إلى سحر خبيث عدائي قام به العدو وأن مهمة الطبيب الساحر هو إفساد هذا السحر لإبراء المريض . وعمل الطبيب الساحر هو في الواقع نوع من الإبراء بالإيحاء وكثيراً ما ينجح هذا النوع من التطبيب كما هو حادث بين أهل الدول المتمدنية .

ولنذكر مثلاً يفسر لنا ما نقوله :

يظن أهل أستراليا الأصليون أن جميع الأمراض بل وأحداث الحياة ذاتها التي لا يرجع أصلها إلى الخروج عن قواعد السلوك المرعية بين أفراد القبيلة وهي التي يطلق عليها اسم « التابو » هي من عمل السحر العدائي فالعدو أو الساحر

يضع دمية تمثل الشخص المراد إلحاق الضرر به ثم يعمل عليها سحره الخاص فيدب الألم والمرض في جسد الشخص الذى تمثله الدمية . وهو إذا أحس بالمرض والألم يتمشى فى أوصاله استدعى الطبيب الساحر فيأتى ومعه بللوراته السحرية الشافية ، ثم يركز أنظاره على المريض معرضاً بللوراته الشافية لأنظار المريض ثم يدلّكه ويمتص منه المرض الذى حل بجسده وهكذا يبرأ المريض من مرضه .

أما إذا اعتقد المريض أنه يعانى من سحر عدائى قتال لا ينفع معه التطبيب أو يرفض الطبيب ذاته معالجة المريض خشية أن يفشل فى ذلك فلا يكون أمام المريض والحالة هذه إلا أن يستسلم للموت .

وهذا هو نوع واحد من أنواع الطب البدائى كما يمارسه السحرة فى هذه الأقوام البدائية ولا بد أنه كان يمارس على وجه ما منذ مئات الآلاف من السنين .

فهرس الكتاب

الفصل الأول

صفحة

٥

السحر فى الأمم القديمة.

الفصل الثانى

٢٤

السحر عند قدماء المصريين

الفصل الثالث

٤٢

سليمان الحكيم بين النبوة والسحر

الفصل الرابع

٥٩

السحر فى الإسلام

الفصل الخامس

٨٥

الرقى والتعاوىذ

الفصل السادس

١٠٠

عقاب السحرة

الفصل السابع

١١١

السحر عند الشعوب البدائية

الكتاب أثنى هدية

خير هدية تقدمها لأهلك وأصحابك في عيد الفطر
السعيد نسخة أو مجموعة من هذه الكتب النفيسة :

تفسير القرآن الكريم (٣٠ جزءاً) ثمن الجزء ١٥

تفسير الطبرى (صدر منه ١٠ مجلدات) ثمن المجلد ١٠٠

جوامع السيرة لابن حزم الثمن ٨٠

عمدة التفسير (ظهر منه جزآن) ثمن الجزء ٥٠

المسند (ظهر منه ١٥ جزءاً) ثمن الجزء (ممتاز) ٨٠

» » (شعبي) ٣

سيرة الرسول (٢٦ جزءاً)

قصص الأنبياء (٢٠ جزءاً)

القصص الدينية (٢٠ جزءاً)

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

Bibliotheca Alexandrina



0668635

